بحثٌ حول المهدي (عج)

تأليفُ

الإمام الشّهيد السيّد محمّد باقر الصّدر قدس سره

تحقيق وتعليق

الدّكتور عبد الجبّار شرارة

مع مقدّمةٍ وافية

مركز الغدير للدراسات الإسلامية | قم

کلمات کلیدی: امام مهدی(ع) – غیبت – عقیده امامیه- ظهور-

--------------------------------------------------------------------------------

ص:5

بسم الله الرحمن الرحيم

--------------------------------------------------------------------------------

ص:6

--------------------------------------------------------------------------------

ص:7

كلمة المركز

--------------------------------------------------------------------------------

ص:8

--------------------------------------------------------------------------------

ص:9

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين .

إن من المهام الفكرية والعلمية التي تصدى مركز الغدير للعناية بها ونشر الأبحاث والدراسات الدائرة حولها والمهتمة بالتعريف بها هي الأبحاث والدراسات العقيدية المرتبطة بعقيدة الإمامة ، ولعل دراسة قضية الإمام المهدي عليه السلام وبحثها بحثاً علمياً استدلالياً والتعريف بها ، ومناقشة الشبهات المثارة حولها ، هي من أهم المباحث وأكثرها حاجة إلى الإيضاح والتعريف .

ولقد كتب العلماء والمفكرون والباحثون والمحققون الكتب والدراسات لدراسة هذا الموضوع الخطير .

كما خرّج علماء الحديث وأصحاب الموسوعات الحديثية أحاديث المهدي المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتبهم وأفردوا لها باباً خاصاً حيناً ، كما وردت ضمن أحاديث وروايات أخرى حيناً آخر .

ومن الذين تناولوا هذه البحث بالدراسات والتحليل ، وضمن منهج متميز هو الفقيه والمفكر الإسلامي الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه ، فقد بحث هذا الموضوع تحت عنوان «بحث حول المهدي» فكان بحثاً عقلياً وتنظيرياً لعقيدة

--------------------------------------------------------------------------------

ص:10

المهدي . ولم يورد فيه مؤلّفه الروايات الدالة على الموضوع ؛ ذلك لأن البحث كان عبارة عن مقدمة لكتاب استدلالي موسع هو كتاب «موسوعة الإمام المهدي» للسيد محمد الصدر .

فهو عبارة إذاً عن مقدمة لكتاب ، وليس كتاباً . غير انّه جاء بحثاً استوعب مرتكزات الموضوع وأغنى جوانبه . وحق ان تبذل الجهود لتحقيقه وإخراجه ونشره . فكاتبه (الشهيد الصدر) قمة من قمم الفكر والعلم ، وحجة من حجج البحث والتحقيق .

من أجل ذلك بادر مركز الغدير بتكليف الأستاذ الدكتور عبد الجبار شرارة أن يقوم بتحقيق هذا الأثر من تراث شهيدنا الصدر العلمي والتعريف بمسئلة من أهم مسائل العقيدة من خلال هذا البحث القيم ، ولقد تركز عمل المحقق بمقدمة علمية استعرض فيها وحلل مناهج البحث في هذه المسألة ، فلخصها يمنهجين هما :

1 ـ منهج المشككين .

2 ـ منهج المثبتين ، الذي قسمه إلى منهجين هما :

الف ـ المنهج الروائي .

ب ـ المنهج العقلي (منهج الشهيد الصدر) .

فتحدث عن منهج الشهيد الصدر وأوضح طريقته في إثبات القضية وبلورة معالمها ، كما قام بنقد ورد الشبهات المثارة حول عقيدة الإيمان بوجود المهدي المصلح ، وأورد الأدلة المثبتة لذلك .

وبعد تلك المقدمة انتقل المحقق إلى نص كتاب «بحث حول المهدي» فقام بتدقيق المتن وضبطه وتخريج الآيات والروايات والإحالات الواردة في متن الكتاب والتعليق على بعض نصوص الكتاب لإيضاحها وكشف غوامضها .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:11

ومركز الغدير إذ يتبنى إعداد هذا الكتاب بتوجيه وعناية من المشرف العام آية الله السيد محمود الهاشمي ، إنما يقدم للقراء أثراً علمياً قيّماً ، وصياغة فكرية فذة لمبدأ إسلامي خطير ، ويعرّف من خلاله بمسألة من أهم مسائل الفكر والعقيدة الإسلامية .

راجين من الله سبحانه قبول العمل وشفاعة أهل البيت عليهم السلام وتحقق آمال المستضعفين في العالم بإقامة دولة الحق التي يرفع لواءها المصلح المنتظر .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

ربيع الأول 1417 للهجرة الشريفة

--------------------------------------------------------------------------------

ص:12

--------------------------------------------------------------------------------

ص:13

مقدمة المحقق

--------------------------------------------------------------------------------

ص:14

--------------------------------------------------------------------------------

ص:15

الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر عليه السلام قضية أساسية في عقيدة المسلمين وقد شغلتهم وما تزال منذ بشّر خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم به ، وأكّد ظهوره في آخر الزمان في أحاديث جمّةٍ ، وفي موارد ومناسبات لا تحصى كثرة بلغت حدّ التواتر ، فصار الاعتقاد به من ضروريات الاسلام . ومع ذلك كلّه فقد نجم في القرون الماضية وفي قرننا الحالي من أنكر وشكّك فيه إمّا تأثراً بمناهج مادية او بسبب عصبية مذهبية أو لجهلٍ بما أودع في الصحاح والمسانيد والسنن ومئات الروايات (1) عن طريق الفريقين السنّة والشيعة ، ولقد ألّف العلماء المتقدمون والمتأخرون عشرات الكتب كما كُتبت فصول أو دراسات تضمنت أدلةً معتبرة واحتجاجات سليمة وقوية على وجود المهدي وصدق القضية بما لا ينبغي معه أن يرتاب فيه مسلم صحيح العقيدة يؤمن بما يخبر به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

ولقد بلغ من رسوخ هذه العقيدة في الامّة المسلمة أن استغلّها بعض الأدعياء ، وادّعوا المهدوية ، ولكن سرعان ما انكشفوا وافتُضحوا ، كما افتُضح أدعياء النبوّة ، وقد حاول الدكتور أحمد أمين في كتابه (المهدوية في الاسلام) أن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنّة والإمامية | الشيخ نجم الدين العسكري ، وفيه أكثر من أربعمئة حديث من كتب أهل السنّة .

منتخب الأثر في الامام الثاني عشر عليه السلام | العلاّمة الشيخ لطف الله الصافي ، وفيه ما مجموعه (6000) ستة آلاف حديث عن طريق الفريقين .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:16

يجعل من ادّعاء المهدوية سبباً للطعن على فكرة المهدي وأصالتها ، ولكن العكس هو الصحيح . فالادّعاء يدلّ على أنّ المدّعين يستغلّون حقيقيةً موضوعيةً ، واعتقاداً راسخاً عند الناس ، ثمّ لو صحّ أنّ الادّعاء مبطل لأصل القضية ، فلازم ذلك إبطال النبوّات لكثر المدّعين بها .

والأمر المثير للعجب أن يتصدى بعض أدعياء العلم والمعرفة قديماً وحديثاً للتشكيك والتشويش على الأمة المسلمة ، لا لشيءٍ الاّ بسبب قصور فهمهم عن إدراك أسرار هذه العقيدة ، ومقاصدها السامية ، أو بسبب غرض آخر ، ومن هؤلاء في عصرنا الحديث المستشرقون وتلامذتهم من أمثال گولدزيهر ، وفلهاوزن ، وفان فلوتن ، ومكدونالد ، وبرنارد لويس ، ومونتغمري وات ، وماسنيون وغيرهم ممن تبعهم من تلامذتهم من أبناء الإسلام ، وسار على منهجهم في إثارة الشبهات والتشكيك بعقائد الإسلام ومقولاته وفي القرآن الكريم والسنّة المطهرة ، ثمّ سلك هذا المسلك الوهابية ومن سار في ركابهم من أبناء الشيعة والسنّة في التشكيك بعقيدة المهدي المنتظر ، وليس لدى جميع هؤلاء ما يدعم إنكارهم من الأدلة والمستمسكات الموثوقة ، بل الدليل قائم على خلاف مذاهبهم والبرهان ساطع وقاطع على صحة العقيدة في المهدي ؛ لثبوت التواتر كما حكاه غير ، ومنهم البرزنجي في الإشاعة لأشراط الساعة ، والشوكاني في التوضيح كما سيأتي .

والغريب أنّ هؤلاء يتوسّلون بنفس الذرائع ، ويتعلّلون بنفس التعلّلات التي توسّل بها منكرو ما جاء من أنباء الغيب التي احتواها القرآن الكريم ، أو التي نطق بها الرسول الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كإنكارهم الإسرار والمعراج (1) .

إنّ قراءة متأنية لما أثاره المشككون من إشكالات ، وما يطرحونه هذه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : تفسير ابن كثير 3 : 9 وما بعدها تفسير اول سورة الإسراء .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:17

الأيام من تشويشات ، كمافي مزاعم وادّعاءات السائح ، والقصيمي ، وغيرهم من المشوّشين ـ وهي لا تختلف عمّا طرحه الخصوم من قبلهم ـ الذين هم عن العلم بعيدون ، وبمعرفة علم الحديث ر وايةً ودرايةً أبعد ما يكونون ، وبحقائق التاريخ ووثاقئه على أتمّ الجهل أو العناد ، إنّ هذه القراءة ستوقفنا على سذاجة تفكيرهم وسُقم واختلال مناهجهم في التعامل مع هذه القضية الخطيرة (1) .

ومن هنا كان تصدي الإمام الشهيد الصدر رضي الله عنه لها بالبحث والدراسة وفق منهج علمي جديد ، يعتمد النقل الصحيح ، والدليل العقلي السليم ، ومناقشة القضية مناقشةً هادئة رصينة متعرضاً لكل الإشكالات المثارة في المقام . والواقع أننا إزاء ما أثاره الخصوم قديماً وحديثاً لم نجد ـ في حدود تتبعنا القاصر ـ من درسها وناقشها بمثل هذا المنهج والأسلوب الذي اتّبعه الإمام الشهيد الصدر رضي الله عنه ، كما سيتضح للقارئ العزيز .

ولعلّ من المناسب في هذه المقدمة أن نتعرّف على جملة حقائق أو ملاحظات يمكن ان تشكل مدخلاً مناسباً لبحث السيد الشهيد رضي الله عنه الذي وفقنا والحمد لله إلى تحقيقه تحقيقاً علمياً حديثاً .

ويتضمن المدخل الإلمام بالأمور الآتية :

أولاً : منهج المشككين قديماً وحديثاً .

ثانياً : منهج المثبتين :

1 ـ المنهج الروائي .

2 ـ المنهج العقلي (منهج الشهيد الصدر رضي الله عنه) .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع مناقشة السائح وأمثاله في (نقد الحديث بين الاجتهاد والتقليد) للسيد محمد رضا الجلالي المنشور في مجلة تراثنا / العددان 32 و 33 ـ السنة الثانية 1413 هـ ـ اصدار مؤسسة آل البيت عليهم السلام .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:18

أولاً : منهج المشككين

ينطلق المنكرون للإمام المهدي المنتظر عليه السلام من دوافع ومنطلقات لا تنسجم مع منهج الإسلام العام في طرح العقائد والدعوة إلى الإيمان بها . فمنهج الإسلام الذي يعتمد على العقل والمنطق والفطرة ، يقوم في جانب مهمٍ منه على ضرورة الإيمان بالغيب . وتتكرر الدعوة في القرآن الكريم إلى ذلك ؛ إذ هناك عشرات الآيات (1) التي تتحدث عن الغيب والدعوة إلى الإيمان به ، والمدحة عليه كما في قوله تعالى : (آلمَ ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيبَ فِيهِ هُدىً لِلمُتَّقِينَ \* اَلّذيِنَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ) البقرة : 2 ـ 3 ، وفي الحديث النبوي الشريف (2) كذلك ؛ إذ هناك مئات الروايات وبصورٍ متنوعة وعديدة وكلّها تؤكّد الإيمان بالغيب وعلى أنه جزء لا يتجزأ من العقيدة ، وأنّ هذا الغيب سواء تعقّله الإنسان وأدرك جوانبه أو لم يستطع إدراك شيء منه وخفيت عليه أسراره ، فإنه مأمور بالإيمان ، غير معذورٍ بالإنكار ، بلحاظ أنّ مثل هذا الإيمان هو من لوازم الاعتقاد بالله تعالى ، وبصدق سفرائه وأنبيائه الذين يُنبئون ويُخبرون بما يُوحى اليهم ، كما هو الأمر في الإيمان بالملائكة وبالجن وبعذاب القبر وبسؤال الملكين (منكر ونكير) وبالبرزخ (3) وبغير ذلك من المغيّبات التي جاء بها القرآن الكريم أو نطق بها الرسول الأمين ونقلها إلينا الثقات المؤتمنون . وإذن فكلّ تشكيك بشأنها ـ أي قضية المهدي ـ إنما يتعلق بأصل التصديق بالغيب ، والكلام فيه يرجع إلى هذا الأصل .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (غيب) . وراجع التفسير ومنها تفسير ابن كثير المجلّد الأول في تفسير أوّل سورة البقرة .

(2) راجع كتاب الفتن وعلامات الساعة في الصحاح والمسانيد والسنن . راجع مثلاً : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول | الشيخ منصور علي ناصف 5 : 300 وما بعدها .

(3) راجع : التاج الجامع للأصول 1 : 25 .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:19

ومن هنا حاول المنكرون لعقيدة المهدي عليه السلام أن يهربوا ، وينأوا بأنفسهم عن طائلة ذلك الاعتقاد ، فلجأوا إلى التشكيك بالأخبار الواردة بشأنه أو تضعيف أسانيدها كما فعل ابن خلدون في تاريخه في الفصل الثاني والخمسين الذي عقده في أمر الفاطمي ، حيث ضعّف الأحاديث المروية في المهدي مع اعترافه بظهور المهدي آخر الزمان ، وبصحة بعض الأحاديث المروية بشأنه . وتبعه عدد من المقلدين أمثال علي حسين السائح أستاذ كلية الدعوة الإسلامية في ليبيا في بحثه (تراثنا وموازين النقد) (1) إذ تعرّض فيه لموضوع المهدي المنتظر ، وتعلق بالخيوط العنكبوتية التي نسجها ابن خلدون حول عقيدة المهدي ، وحسب أنه لجأ إلى ركن شديد ، وأنه سيرقى عليها إلى السماء ، غافلاً عن أنه تشبث بأوهن البيوت .

وعندما اصطدم هؤلاء بعد إمكانية ردّ تلك الروايات أو تضعيفها لكثرتها ، وتعدد طرقها ، وصحة أسانيد عدد كبير منها كما أثبتها أئمة الحديث (2) ، لجأوا مرةً أخرى إلى احاطة أمر المهدي بالأساطير التي اخترعوها ، كاختراعهم أكذوبة السرداب التي لا أصل لها عند المعتقدين به ، وقد ناقشها الشيخ العلامة الأميني مناقشة وافية أبان فيها تخبط الخصوم في الأساطير التي نسجوها تارةً في موقع السرداب ـ إذا اختلفوا فيه اختلافاً مضحكاً ـ وتارةً اُخرى في مواقف الشيعة وطقوسهم المزعومة حول السرداب (3) .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) البحث نُشر في مجلة الدعوة الإسلامية الصادرة في ليبيا ، وراجع مناقشته في بحث السيد الجلالي المنشور في مجلة تراثنا المذكور سابقاً .

(2) راجع : دفاع عن الكافي | ثامر هاشم العميدي 1 : 203 وما بعدها ، فقد اورد مناقشة العلماء وأئمّة الحديث لتضعيفات ابن خلدون والمقلّدين لرأي ابن خلدون ، كما ناقش هو تلك التضعيفات مناقشة علمية متينة أبان فيها تهافتهم وعدم تبصّرهم ومعرفتهم بفن الرواية وأصول الدراية .

(3) راجع : الغدير 3 : 308 ـ 309 ، وراجع ما أورده العميدي من مناقشات متينة لهذه الفرية في دفاع عن الكافي 1 : 539 ، راجع : سرة الائمة الاثني عشر | هاشم معروف الحسني 2 : 559 .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:20

ولجأ آخرون إلى انكار ولادته (1) الميمونة بإقراء ذوي المطامع (2) او الطموح السياسي والاجتماعي لتبني هذا الإنكار والإفادة منه ، إلى غير ذلك من التعلقات الواهنة التي تسقط لدى عرضها على الحقائق الوفيرة ، فضلاً عن مقتضيات الأحاديث الصريحة الصحيحة .

وبالجملة فإنّ منهج المشككين لم يخرج عن مثل تلك المنطلقات والتوهمات أو المغالطات المنكرة ، فضلاً عن تعارضه مع الأصول المعتبرة الدينية والروائية .

ولعل من المناسب أن نورد ضمن هذا المنهج ما ذهب إليه بعض المعاصرين من أمثال إحسان إلهي ظهير (3) والبنداري (4) والسائح ، ومن احتذى حذوهم ، وقلّدهم تقليداً أعمى من المنسوبين إلى الشيعة .

وملخّص ما أثاروه واستندوا إليه أمور نذكرها كما وردت على ألسنتهم ، ثمّ نناقش أسس مدّعياتهم ومنهجهم ، وذلك كما يأتي :

1 ـ قالوا : إنّ الشيعة وقعوا في حيرة واضطراب بعد وفاة الإمام العسكري ، وخاصة فيما يتعلق بولادة الإمام المهدي (محمد بن الحسن) ؛ لوجود الغموض فيما ورد عنه من طريق الأئمة عليهم السلام عندما سُئلوا عنه .

2 ـ قالوا : إنّ الشيعة انقسموا وتفرقوا إلى أربع عشرة فرقة في مسالة الإمام

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : دفاع عن الكافي : 1 : 569 فقد أورد المؤلف شهادات واعترافات وإثباتات وافية عن علماء أهل السنّة من القرن الرابع الهجري إلى القرن الرابع عشر في إثبات ولادة المهدي واستمرار حياته ووجوده الشريف .

(2) راجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص 345 ، وراجع أيضاً سيرة الأئمة الاثني عشر | الحسني 2 : 534 ـ 538 في قضية جعفر الكذّاب .

(3) راجع الشيعة والتشيع ـ فرق وتاريخ : وص 261 و 301 | الطبعة الثانية 1384 هـ ـ باكستان .

(4) راجع التشيع بين مفهوم الائمة والمفهوم الفارسي | الطبعة الثانية ـ دار عمار ـ الأردن .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:21

بعد وفاة الامام الحسن العسكري ، وأن أمر الإمام المهدي لو كان واضحاً ومهماً وجزءاً من المذهب الجعفري لما جاز الاختلاف فيه ، ولما أمكن ان يبقى امره سرّاً غامضاً .

3 ـ زعموا أن الروايات التي تتحدث عن هوية الإمام المهدي ضعيفة وموضوعة ومختلفة ، سواء منها ما يتعلق باسم أمّه ، أم بتاريخ ولادته ، أم بما لابسَ ولادته ، أم بغيبته وسفرائه.

وقد ختم أحدهم تخرَصاته زاعماً بأنه لم يرفض إمامأ ثبت وجوده من أهل البيت ، إنما حصل عنده شكّ بولادة الإمام الثاني عشر ؟ لعدم توفر الأدلة الكافية- بحسب زعمه- أو لعدم قناعته بها أي بالأدلة المذكورة ، وذكر أنه لايستبعد أن يطيل الله عمر إنسان كما أطال عمر النبي نوح عليه السلام ، بالرغم من عدم الحاجة والضرورة إلى ذلك. وأنه يبحث عن الأدلة التي تثبت أن الله تعالى قد فعل هذا بشخصِ آخر ، لأنه لا يمكن أن يعتقد بحدوث هذا عن طريق القياس والتشبيه ، ثم قال : «وقد كان سيدنا الصادق يرفض القياس بالأُمور الفرعية الجزئية فكيف في الأمور التاريخية والعقائدية» .

هذا ملخص ما أوردوه وانفتقت به عبقرياتهم وهم يحسبون أنهم جاءوا بما لم يتنبه إليه الأوائل.

وردّاً على هذه الإشكالات ، وجوابأ عن هذه الإثارات ، نقول :

أولأ ـ إن وجود الغموض في تحديد هوية الإمام المهدي ، ووقوع الحيرة لدى الشيعة ـ لو صخّ كما صوّره الخصم وضخّمه ـ هو دليل على الخصوم وليس لهم ، إذ عدم تحديد الهوية والإصرار على بقاء الأمرسرّاً دليلٌ على وجود الإمام والخوف عليه من الأعداء لا على عدم وجوده ، كما توهّموا.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:22

فالأئمة عليه السلام -كما وردت الروايات (1) ـ لم يريدوا الكشف عن التفاصيل المتعلقة بحياة الإمام المهدي وولادته الميمونة ، لمعرفتهم بتكالب الأعداء في طلبه ، وجدّهم وتربّصهم به ، وقد كانوا يبثون العيون ويترصدون كلّ حركة للعثور على الإمام والتخلص منه ، بعد أن أيقنوا بالأمر وشاهدوا ترقّب الأُمّة وتطلعها لمقدمه الشريف ليملأ الأرض قسطأ وعدلأ بعد أن ملئت ظلمأ وجورأ.

وكيف لا يحرص الأئمة عليهم السلام على حياته العزيزة ، وقد فعل سلاطين الجور الأفاعيل ، وارتكبوا الحماقات والشناعات بحق أهل البيت وذرية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ طاردوهم وسجنوهم وأذاقوهم التشريد والقتل أخذاً بالظِنّة والتُهمة والوشاية المغرضة ، ودونك التاريخ فاقرأ في (مقاتل الطالبيين) للأصفهاني العجب العجاب.

وإذن فكيف يكون الحال وقد اطلع هؤلاء السلاطين على الروايات في صحاح المسلمين ومسانيدهم عن المهدي من العترة الطاهرة ، ومن ذرية فاطمة ومن أولاد الحسين تحديدأ ، وأنه سيظهر ليملأها قسطأ وعدلأ ، فهذه المعرفة اليقينية قد خلقت شعورأ قويأ لدى الحكام الظلمة بأن عروشهم ستنهار. وكان هذا ا الهاجس هو الذي يفسّر لنا تلك الإجراءات الغريبة وغير الاعتيادية التي اتخذتها السلطة الحاكمة عند سماع نبأ وفاة الإمام الحمسن العسكري عليه السلام مباشرة ، وليس هناك من تفسير معقول سوى اعتقادهم بوجود الإمام الثاني عشر الحجة ابن الحسن ، وأنه الإمام الموعود كما نطقت به الأخبار المتواترة لدى السُنّة والشيعة ، ولذا أسرعوا إلى دار الإمام عليه السلام واتخذوا مثل تلك الإجراءات الاستثنائية بدءأ من التفتيش الواسع والدقيق ، إلى حبس جواري الإمام وإخضاعهن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : الغيبة للنعماني من أعلام القرن الرابع الهجري | الباب 12 ، الغيبة الكبرى | السيد محمد الصدر | البحث التمهيدي.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:23

للفحص (1) ، كل ذلك في محاولة يائسة للقبض على الإمام. ولا عجب فقد حصل ذلك من نظرائهم ، وحدّثنا القرآن الكريم عن فعل فرعون للقبض على النبي موسى عليه السلام فنجّاه الله من الكيد.

ومن هنا نفهم السبب في إخفاء الإمام الصادق عليه السلام هوية المهدي والتفاصيل المتعلقة بهذا الأمر.

وليست الحيرة بعد ذلك والاضطراب إلأ حالة طبيعية في ظل مثل تلك الظروف والملابسات الخاصة التي رافقت قضية المهدي عليه السلام في وجوده وولادته ، وشغب السلطة وتمويهاتهم وإعلامهم الزائف. وإذن فليست (الحيرة) إلأ بسبب تلك الظروف والملابسات ، فضلأ عن أن الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام قد أشارت إلى وقوع مثل هذه الحيرة والفتنة والتفرق ، كما نقل ذلك ابن بابويه القمي في (التبصرة) ، والشيخ النعماني في (الغيبة) الباب الثاني عشر.

ثانيأ ـ قولهم بضعف الروايات واختلاقها ، ولا ندري هل أنّهم يفرّقون بين الضعيف والموضوع أم هما عندهم سواء ؟ ثم لماذا هذا الخلط المقصود بين مسألة وجود الإمام الحجة الثابتة بالطرق الصحيحة وبين بعض الروايات التي تلابس (حدث الولادة) ؟ والعجب من ركوب هؤلاء جميعأ هذه الجرأة المفضوحة إذ إن روايات (المهدي) لم تروها كتب الشيعة فحسب ، ولم ترد عن طرقهم فقط ، وإنما روتها الصحاح والمسانيد والجوامع الحديثية المعتبرة كصحيح أب داود ، وصحيح البخاري وشروحه ، ومسند أحمد بن حنبل ، وجامع الطبراني ، وجمعها السيوطي في العرف الوردي (2) من عدة طرق ، وحكى تواترها البرزنجي في الإشاعة (3) ،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الإرشاد | الشيخ المفيد : ص 345.

(2) راجع الحاوي للفتاوي | السيوطي 2 : 213 وما بعدها.

(3) الإشاعة لأشراط الساعة : ص 87 ـ 22 1 الباب الثالث.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:24

وكذا الشوكاني في التوضيح (1) ، ونقل ذلك أخيرأ الشيخ منصور علي ناصف! في غاية المأمول (2) .

فانظر إلى جهل المشككين كيف رموا ما صحّ وتواتر عند جمهور المسلمين من السُنّة والشيعة بالوضع والاختلاق واعجب لجرأتهم وشغبهم! إذ لايصحّ بعد ذلك شيئ مما تناقله الرواة من حوادث التاريخ ، وأسماء الأعلام ، وآراء المذاهب الختلفة.

ثالثأـ استدل بعضهم على نفي وجود الإمام المهدي وولادته بقوله : إن الشيعة اختلفوا في المهدي وانقسموا ـ على حدّ زعمه ـ إلى سبع عشرة فرقة بعد وفاة الحسن العسكري عليه السلام ، وهذا يدل ـ بحسب زعمه ـ على عدم وجود الإمام!!

ولعل من المناسب أن ننبه إلى أنّ الاختلاف حول موضوع أو قضية أو شخص لا يستلزم العدم ، إذ لو جرينا على هذا المنطق لما قامت عقيدة ، ولا ثبت دين ، ولا استقام شأن من الشؤون ، فالاختلاف قائم دائم في العقائد ، وفي التواريخ ، وفي الشخصيات ، وفي الحوادث الواقعة ، وفي الفروع ، وفي سائر الأمور. وقد تفرّق أبناء الفرقة الواحدة إلى فرقِ وطوائف واتجاهات وآراء كما حدث عند المعتزلة والخوارج والأشاعرة (3) وغيرهم.. ثم ألم تسمع بما تناقله أهل الحديث من الرواية المشهورة وهي قوله صلى الله عليه وآله وسلم ،... وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة (4) .

ونتساءل هنا ، حول أيّ شيء كان الافتراق ؟ وهل يستلزم ذلك نفي ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) التوضيح في تواتر ما جاء من الأحاديث في المهدي والدجال والمسيح ، كما في غاية المأمول.

(2) غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول 5 : 360.

(3) راجع : مقالات الإسلاميين للأشعري ، والملل والنحل للشهرستاني ، وفرق النوبختي وغيرها.

(4) راجع هذه الرواية وغرهافي سنن ابن ماجة 2 : 1321 | 3991 كتاب الفق ـ باب افتراق الأمم.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:25

تفرقوا (فيه) لهذا السبب ؟! وإذن لا تبقى عقيدة ، ولا تسلم حقيقة ، ولا يستقيم أمرٌ بسبب وقوع الافتراق والانقسام في ذلك بحسب هذا المنطق .

والسؤال الأهم ، ما هي هذه الفرق التي انقسم إليها الشيعة بعد وفاة الإمام العسكري ؟ وما هي تسمياتهم ؟ ومن هم زعاء ورجال هذه الفرق المزعومة ؟ لقد قال الشهرستاني في الملل والنحل : «وأما الذين قالوا بإمامة الحسن ـ العسكري ـ : فافترقوا بعد موته إحدى عشرة فرقة ، وليست لهم ألقاب مشهورة ، ولكنّا نذكر أقاويلهم . . » (1) . وإذن فهو لا يعرف أسماءهم ولا رجالهم ، وهم حسب زعمه إحدى عشرة فرقة ، أما هؤلاء المقلدون الكذّابون من أمثال إحسان إلهي ومن تابعه أخيرأ فقد زادوا العدد فرقأ أخرى ليس لها اسم ولا رسم ، حتى أوصلها أحد هؤلاء المفضوحين إلي سبع عشرة فرقة !! وأنّي لهم بمعرفتها وهي من مختلقاخهم ؟ ولذا لم يذكر أحد منهم زعيماً أو رجلأ معروفأ في التاريخ من هذه (السبع عشرة) فرقة ، بل ولم يجرأ أحد هؤلاء المفترين على الشيعة أن يشير إلى مكان أو زمان وجودهم.

ويحسن أن ننقل تعليقة العلأمة عبدالحسين شرف الدين في الفصول المهئة حول هذه الكذبة التي أطلقها الشهرستاني في ملله ، قال العلأمة معقبأ : « وليته أسند شيئأ من الأقاويل التي نقلها عن تلك الفرق إلى كتاب يتلى أو شخص خلقه الله تعالى! وليته أخبرنا عن بلاد واحدة من تلك الفرق أو زمانها أو اسمها! فبالله عليك ، هل سمعت بفرق متخاصمةِ! ، ونحل آراؤها متعاركة لا يُعرف لهم في الأحياء والأموات رجلٌ ولا امرأةٌ ؟! ولا يوجد في الخارج الم مسمّى ولا اسم ؟!! » (2)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الملل والنحل 1 : 151 و 152.

(2) الفصول المهمة ني تأليف الأمة : ص 169.

والظاهر أنّ أحدهم قد أدرك خطأه واشتباهه فقال أخيراً : إنّي لم أرفض إمامأ ثبت وجوده من أهل البيت عليهم السلام ، وإنمّا حصل عندي شك بولادة الإمام الثاني عشر . زاعمأ أنّ السبب هو عدم توفر إلاّدلة الكافية ، أو عدم قناعته بالأدلة!!

والسؤال الذي نثيره هنا هو ، عن أي نوع من الأدلة يبحث هؤلاء ؟ وهل هناك أدلة أقوى من إطباق الطائفة وعلماء الأمّة ورواتها الثقات على مثل هذا الأمر ، أعني ولادة الإمام الحجة ابن الحسن ؟ إذ ليس هناك من سبيل إلى ثبوت مثل هذه الأمور إلأ الخبر الصحيح ، وتوفر الشواهد ، وقيام القرائن والمؤيدات من العقل والمنطق ، وقد ثبت من كل هذه الجهات.

ولعل من المناسب الإشارة إلى ما حققه السيد ثامر العميدي في كتابه (دفاع عن الكافي) الجزء الأؤل ، وأثبت ولادة الإمام واستمرار وجوده الشريف بالروايات والأحاديث الصحيحة ، ثم بالنقل التاريخي المتواتر ، كما أورد اعترافات وشهادات الفقهاء والمحدّثين والمفسّرين والمؤرخين وأهل التحقيق والأدباء والكتاب ، وكلهم من أهل السُنّة بولادة المهدي محمد بن الحسن العسكري ، ونقل ذلك عنهم بدءأ من بداية القرن الرابع الهجري كالروياني في المسند ، وسهل بن عبدالله البخاري (ت | 1 34 هـ) في سر السلسلة العلوية ، والخوارزمي (ت | 387هـ) في مفاتيح العلوم طبعة ليدن 1895 م.

كما أورد اعترافات من رجال القرن الخامس إلى القرن الرابع عشر ، ومنهم : أبو نعيم الأصفهاني (ت | 430 هـ) في الأربعين حديثأ ، ويحيى بن سلامة الخصفكي الشافعي (ت | 568 هـ) كما في تذكرة الخواص لابن الجوزي ، ومحيي الدين بن عربي (ت | 638هـ) في الفتوحات المكية على مانقله الشعراني في اليواقيت والملك المؤيد أبي الفداء إسماعيل بن علي (ت | 732 هـ) في المختصر في أخبار البشر ، وابن الصباغ المالكي (ت | 855 هـ) في الفصول المهمة ، وجلال الدين السيوطي (ت | 911هـ) في

--------------------------------------------------------------------------------

ص:27

إحياء المَيْت ، وابن طولون الحنفي مؤرخ دمشق (ت | 953هـ) في كتابه الائمة الاثنا عشر ، وأحمد بن يوسف أبوالعباس القرماني الحنفي (ت | 1019هـ) في كتابه أخبار الدول ، والشبراوي الشافعي (ت | 1171 هـ) في الإتحاف بحب الأشراف ، ومحمد أمين السويدي (ت | 1246هـ) في سبائك الذهب ، وأخيرأ الزركلي (ت | 1396هـ) في الأعلام ، وهذا الكمُّ الكبير من الروايات والنقول والشواهد والشهود ألا تكفي للاقتناع بوجود شخصِ وولادته ؟ وإذا لم! يكن ذللث كله كافيأ ودليلاً ، فلازمه بالضرورة الشك في كل الحوادث الماضية والشخصيات العلمية والتاريخية وما جرى في غابر الزمن البعيد والقريب ، وعند ذاك لا يصحّ شيء ، ولا يثبت شيء ، فهل هذا يُرضي مثل هؤلاء المتطفلين على البحث والتحقيق ؟!

وأما إذا كان الأمر من جهة تعقل الموضوع ، فدونك (مجث حول المهدي) للشهيد الصدر رضي الله عنه ـ وهو هذا الكتاب الذي بين يديك ـ فهو الشافي الكافي ، والحجة الدامغة والبرهان القاطع لمن يفكر بعقله ، ولا يتعبد بما نقله وحكاه ذوو الأغراض المعروفة ، والمغالطات المفضوحة أمثال ظهير والبنداري وغيرهم.

ولعل من الأمور التي تدُلّك على المغالطة المفضوحة هو قولهم : «لا نستبعد أن يطيل الله عمر إنسان... ولكن لا يمكن الاعتقاد بحدوث هذا عن طريق القياس ، وقد كان سيدنا الصادق يرفض القياس في الفروع ، فكيف في الأمور التاريخية والعقائدية ؟! ».

وقد فاتهم أن القياس هنا أمر وارد ، ودليل معتبر عند أهل المنطق وأهل النظر في مثل هذه الموارد التي قد لا يدركها الإنسان إلأ عن طريق التشبيه والقياس ، وهو أُسلوب علمي ، ومنهج قرآني (ويَضرِبُ اللهُ الأَمثال لِلنَّاسٍ) إبراهيم : 25 ، وقال تعالى حاكياً قول المنكرين لبعض الأُمور الاعتقادية كالمعاد كما في الآية المباركة : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنِسِيَ خَلقَهُ قَالَ مَن يُحيٍي العٍظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُل

--------------------------------------------------------------------------------

ص:28

يُحيٍيهَا اَلذِي أَنشَأهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ..) يس 78 ـ 79.

فانظر كيف يتنكب المتطفلون عن المنهج القرآني والعلمي ؟ وانظر إلى عدم تفرقتهم بين القياس في أحكام الشريعة المنهيّ عنه ، لعدم إحراز علة الحكم التي بنى الشارع عليها حكمه ، وبين القياس في مجال المعقولات الذي لا شبهة فيه.

وهكذا نخلص إلى القول أنّ أصحاب هذا المنهج التشكيكي ليس بأيديهم حجة ولا برهان ، ولا يملكون سندأ علميّاً أو تاريخيأ مقبولأ ومنطقيأ في نفيهم وتشكيكاتهم ، وإنما هي مجرد ظنون وأوهام ، أو افتراضات وحدوس تتهاوى أمام الأدلة والبراهين المتينة ، الروائية والتاريخية والعقلية كما سطّرها وحققها المثبتون لولادة الإمام المهدي عليه السلام واستمرار وجوده الشريف المبارك.

ولا يضير ذلك ما أحيطت به روايات ولادته التي اختلفت من بعض الوجوه ، ومحاولة هذا النفر استغلا لها بصورة غير أمينةٍ ولا دقيقة للتشويش على أصل الموضوع ، وهو ولادة الحجة ابن الحسن محمد المهدي عليه السلام ، وقد ثبت من الطريق الاعتيادي الذي تثبت به الولادات ، وهو شهادة القابلة حكيمة بنت الإمام الجواد ، وعمة الإمام العسكري ، وصحّة الرواية عنها بأسانيد معتبرة صحيحة (1).

وإذا كان هناك من نقل روايات أُخرى سواء في زواج الإمام أبي محمد الحسن العسكري من (نرجس) أمّ الإمام المهدي عليه السلام أم في اسمها ، أم في ولادة المهدي وما جرى ولابس تلك الولادة المباركة ، أم في الاختلاف في تاريخ الولادة «فإن المشهور على ما نقلة الثقات من الشيعة والسنّة ، هو ولادته سنة 255 هـ في الخامس عشر من شعبان ، وأنّ أُمّه هي (نرجس) وكانت جارية عند إحدى

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أصول الكافي : الجزء الأول ـ كتاب الحجة ، وراجع إثبات الوصية | المسعودي : ص 219.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:29

أخوات الإمام علي الهادي عليه السلام ، فطلبها الإمام العسكري وتزوجها ، وولدت منه الإمام المهدي ، كما صرّح به الإمام العسكري بسند صحيح لا خدشة فيه » (1) . وقد بشّر الإمام العسكري أصحابه وشيعته خاصة بالمولود المبارك ، وأنه الخلف الحجة الموعود والإمام من بعده (2) .

وأخيرأ لا بدّ من التنبيه أيضأ إلى أنّ منهج هؤلاء المنكرين في قضية الإمام المهدي عليه السلام يقوم على أُسلوب كان قد اتّبعه المستشرقون من قبل في معالجاتهم ومناقشاتهم لعقائد الإسلام ، ونبوّة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء ، ولِمَا جاء في القرآن الكريم من المفاهيم والأفكار والأحكام ، وهذا الأسلوب يتمثل ـ كما يرى المستشرق المنصف آربري (3) ـ « باقتطاع النصوص من سياقها ، وبالتحليل السطحي.. » هذا فضلأ عن المغالطات والمفارقات المنهجية كالإحالة إلى المصادر بصورةٍ غير دقيقة وغير أمينة (4) ، وكالتدليس والكذب في نسبة الآراء ، إذ يوردون نصوصأ ثم يذكرون المصادر جملةً ، على سبيل التمويه ، والأنكى والأعجب أ نّهم ـ وبحسب تحليلهم السطحي ـ يطرحون فهمهم لبعض المطالب على أنه المفهوم والرأي عند المذهب أو الطائفة وهو فهم غير دقيق ، ثم يحاولون أن يحشّدوا النصوص ويقسروها لتتلائم مع تصوراتهم وأفهامهم هُم ، وليس مع ما ذهب إليه المذهب أو مع ما كان مقبولأ ومعتمداً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع المصدرين السابقين ، وتفصيلات وافية عن الموضوع في دفاع عن الكافي | السيد ثامر العميدي 1 : 546 وما بعدها.

(2) راجع دفاع عن ألكافي المصدر السابق في ما نقله بطرق صحيحة معتبرة عن الكافي وغيره.

(3) راجع المستشرقون والإسلام | الدكتور عرفان عبد الحميد : ص 19.

(4) راجع إحسان إلهي ظهير في كتابه الشيعة والتشيع ـ فرق وتاريخ ، ومن تابعه فيما أشاروا إليه من كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة لابن بابويه القمي (والد الصدوق) (ت | 329) ، ففيه أدلة ضدهم. وراجع ما انتقوه من فرق الشيمة للنوبختي ، وفيه غير ما ذهبوا إليه.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:30

وأرى لزاماً عليّ التنبيه أيضأ إلى أمرٍ مهمٍّ ، ذكره العلأمة محمد تقي الحكيم في كتابه الأصول العامة للفقه المقارن قائلاً : «إنّ مجتهدي الشيعة لا يسوّغون نسبة أيّ رأي يكون وليد الاجتهاد إلى المذهب ككل ، سواء كان في الفقه أم الأصول أم الحديث ، بل يتحمل كل مجتهدٍ مسؤولية رأيه الخاص. نعم ما كان من ضروريات المذهب يصحّ نسبته» (1) .

ومن هنا يكون من المجازفة في القول تعميم الرأي الاجتهادي ما لم يَحْظ بالقبول والشهرة. وكذلك الأمر في المجالات الأخرى فإنه لو ذهب أحد المفسرين أو الأخباريين إلى رأي ، أو أخذ برواية ، أو أبدى وجهة نظر معينة ، وحتى لو اعتمد نظرية أو فكرة ، فإنه لايصحّ تحميل المذهب أو الطائفة ذلك ، بل يكون من المنطتي نسبة الرأي إليه ، وتحميله هو اعتماده على هذه الرواية أو تلك ، مع ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار منهجه الروائي الخاص. ويكون حينئذ على الباحث العلمي أن يحصّل رأي المذهب من مجموع آراء الفقهاء والعلماء ، واستنادأ إلى المنهج العام لديهم بما في ذلك منهجهم في قبول الأخبار والروايات والأسانيد ، وكذلك يشترط الرجوع إلى ما أصّلوه من المفاهيم والآراء بالرجوع إلى المصادر الأصلية والأساسية لديهم.

وعليه فبدون ذلك ، أعني بدون الالتفات إلى هذه الملاحظات المهمة ، فإنّ الباحثين سيقعون بلا أدفى شك في الخلط والمجازفة والاشتباه ، ولايُعفَون حينئذ من سوء القصد ومحاولة المشاغبة والتشويش وهو ما دأبَ عليه أسلافهم من المستشرقين وخصوم الإسلام أو الحاقدين على أهل البيت عليهم السلام ، وعلى مدرستهم الأصيلة في الإسلام الحنيف ، كما هو شأن إحسان إلهي ظهير والجبهان والبنداري وغيرهم في القديم والحديث.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الأصول العامة للفقه المقارن : ص 596 ، الطبعة ـ الثانية 1979 م ، دار الأندلس ـ بيروت.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:31

وتبقى كلمة أخيرة فيما يتعلق بالمهدي الموعود عليه السلام بعد ثبوت ولادته الميمونة ووجوده المبارك ، وهي مسألة تعقل أو عقلانية استمرار وجوده الشريف وثبوت ذلك منذ الغيبة الصغرى ، وحتى انقطاع السفارة ثمّ وقوع الغيبة الكبرى . وهنا سيجدُ القارئ الكريم والباحث الطالب للحقيقة سيجد فيما كتبه السيد الشهيد ، ووضّحه من هذه المطالب ، وما ساقه من الأدلّة العقلية والمنطقية والعلمية ما يشفي الغليل ، ويزيل أوهام وتعلقات المشككين .

ثانياً : منهج المثبتين

1 ـ المنهج الروائي : إنّ الذين كتبوا في قضية المهدي كثيرون جداً ، قديماً وحديثاً ، ومنهم من أفرده بكتاب مستقل ومنهم من كتب فصلاً أو فصولاً ، وقد احصى عبد المحسن العباد في بحثه المنشور في مجلة الجامعة الإسلامية الصادرة بالمدينة المنورة أكثر من عشرة مؤلفين من أجلاء علماء أهل السنّة ، منهم : الحافظ أبو نعيم والسيوطي الشافعي ، والحافظ ابن كثير ، وعلي المتقي الهندي صاحب كنز العمال ، وابن حجر المكي في مؤلّفه : (القول المختصر في علامات المهدي المنتظر) ، ومرعي بن يوسف الحنبلي (ت / 1033 هـ) ، ومؤلّفه الذي سمّاه (فوائد الفكر في ظهور المهدي المنتظر) ، ذكره السفاريني في لوامع الأنوار البهية ، ومنهم : القاضي محمد بن علي الشوكاني (ت / 1250 هـ) الذي سمّي مؤلّفه : (التوضيح في تواترما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح) إلى غيرهم .

أمّا عند الشيعة فهناك عشرات الكتب والرسائل التي كتبت ونشرت قديماً وحديثاً منها أخيراً : منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر للشيخ لطف الله الصافي الگلپايگاني ، وإلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب للشيخ علي اليزدي الحائري ، والمهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنّة والإمامية للشيخ نجم الدين

--------------------------------------------------------------------------------

ص:32

العسكري ، نشر مؤسسة الإمام المهدي ـ طهران ، والإمام المهدي لعلي محمد علي دخيل طبع بيروت ، وهو جليل ومهم جداً .

وقد اعتمد هؤلاء العلماء وغيرهم في مناقشاتهم لدعاوى المنكرين على الأدلة النقلية غالبأ ، فأثبتوا صحّة أحاديث المهدي من طرق أهل السنّة والشيعة (1) ، وتعدد طرق الرواية ، وكثرة الرواة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين من سائر الفرق والمذاهب الإسلامية.

فقد نقل الشيخ العباد أن رواة حديث المهدي من الصحابة ستة وعشرون راويأ ، أمّا الأئمة الذين خرّجوا الأحاديث والآثار الواردة في المهدي فيبلغ عددهم ثمانية وثلاثين ، ذكر أسماءهم وفي مقدمتهم أبو داود في سننه ، والترمذي في جامعه ، والنسائي في سننه ، وأحمد في مسنده ، وأبو بكر بن شيبة في المصنف ، والحافظ أبو نعيم في الحلية وفي كتاب المهدي ، والطبراني في المعجم الكبير والأوسط ، وابن عساكر في تاريخه ، وأبو يعلى الموصلي في مسنده ، وابن جرير في تهذيب الآثار ، والبيهقي في دلائله ، وابن سعد في الطبقات وغيرهم.

ونريد أن نسأل (أحمد أمين) ومن عزف على نغمته هنا : هل أنّ مثل هؤلاء الأئمة من علماء الحديث والرواة المعتبرين الذين تلقتهم الأمّة بالقبول ، واعتمدت عليهم فيما نقلوه من صحيح الآثار أو صححوه ، كلهم يتواطؤن على نقل (أسطورة) ؟ وكيف يعقل أن تهتم الأمّة ، وأجلة العلماء والمحققين وأصحاب الصحاح والمسانيد (باسطورة) إلى هذا الحدّ ؟! ولماذا هذه الجرأة المنافية لأبسط قواعد الذوق والمنطق والعلم والأخلاق ؟ أوليس تدلّ مثل هذه التشويشات على

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : عقيدة أهل السنّة والأثر في المهدي المنتظر | الشّيخ عبد المحسن العبّاد ، مجلة الجامعة الإسلامية | العدد الثالث | السنة الأولى 1969 م ، وراجع : منتخب الأثر | العلأمة الصافي الگلبايگاني.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:33

ركوب الهوى أو الانسياق واللهاث وراء تلويحات الوهابية ، (ورنين إغراءاتها) ؟ بل إن العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين أثبتوا تواتر أحاديث المهدي ليقطعوا الطريق والعذر على المتشككين والمتأولين ، كما فعل الشوكاني (ت | 1250هـ) في رسالته المسمّاة ب (التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي والدجال والمسيح) ، والبزرنجي (ت | 1103هـ) في (الإشاعة لأشراط الساعة) ، ثم ذ كر الشيخ عبد المحسن العباد في بحثه المنشور في مجلة الجامعة الإسلامية آخرين ، منهم : الحافظ الآبري السجزي (ت | 363 هـ) ، والشيخ محمد السفاريني (ت | 1188 هـ) في كتابه لوامع الأنوار البهية ، ومنهم : الشيخ صديق حسن القنوچي (ت | 1307 هـ) ، ومن المتأخرين الذين حكوا تواتر أحاديث المهدي الشيخ محمد بن جعفر الكتاني (ت | 1345هـ) في كتابه نظم المتناثر من الحديث المتواتر.

وقد تصدّى العلماء أيضأ إلى ما تعلّق به الخصوم من دعاوى ، وما أثاروه من إشكالات وطعون في الروايات وأجابوا (1) عن ذلك بجوابات سديدة ومتينة ، ولعلّ من أهم هذه الدراسات الحديثة :

الف ـ دراسة عبد المحسن العباد (2) ـ وهو إستاذ جامعي ومن علماء أهل السنّة ـ وهي على ما فيها من زلّات واشتباهات ، إلأ أنه عرض فيها بالتفصيل لذكر أسماء الصحابة الذين رووا أحاديث المهدي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وأحصى منهم ستة وعشرين صحابيأ ، ثم ذكر أسماء الأئمة الذين خرّجوا أحاديث المهدي ، وأحصى منهم ـ أي من أئمة الحديث ـ ثمانية وثلاثين ، ثمّ أورد بعد ذلك أسماء العلماء الذين أفردوا مسألة المهدي بالتأليف ، وذكر عشرة منهم ، ثم ذكر بعض الذين حكوا تواتر أحاديث المهدي ، ثمّ انتقل إلى ذكر ما ورد في الصحيحين ممّا له تعلّق

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع الأجوبة عن طعونهم في دفاع عن الكافي | السيد ثامر العميدي 1 : 205.

(2) تقدمت الإشارة إلى عنوان بحثه ومصدره.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:34

بالمهدي ، ثم انتقل إلى ذكر بعض الأحاديث في غير الصحيحين من السنن والمسانيد ، ثّم ذكر بعض العلماء الذين احتجوا بأحاديث المهدي واعتقدوا موجبها ، ثم تعرض بالمناقشة القوية للمنكرين لأحاديث المهدي أو المترددين في شأنه ، وذكر منهم ابن خلدون ، وسجّل عليه ملاحظات وإيرادات أظهر فيها تهافته وعدم تبصّره بالأُمور ، ونقل عن الشيخ المحقق أحمد شاكر الذي حقق مسند الإمام أحمد وخرّج أحاديثه قوله عن ابن خلدون رادّاً عليه تشكيكاته : «أما ابن خلدون فقد قفا ما ليس له به علم واقتحم قحماً لم يكن من رجا لها ، وأنه تهافت تهافتاً عجيبأ في الفصل الذي عقده في مقدمته للمهدي وغلط أغلاطاً واضحة..» وانتهى آخر الأمر إلى أنّ المهدي حقيقة ثابتة لا تقبل الشك.

ب ـ أمّا الدراسة الثانية فكانت للباحث والمحقق ثامر العميدي ، الذي جرى على منهج علماء الإمامية الأجلّاء الذين عالجوا هذه المسألة ، وأشبعوها بحثأ واستقصاءً ، واستطاع هذا الباحث الفاضل أن يُلخّص تلك المطالب ، ويستوفي تلك المضامين ويستوعبها ، ويضفي على ذلك كله من بيانه وتحقيقاته ، ويخرجه على منهج علمي رصين ، وقد استغرقت هذه الدراسة الصفحات من 171 إلى 611 من الجزء الأول من كتابه القيّم (دفاع عن الكافي) الذي نشره مركز الغدير للدراسات الإسلامية سنة 1995 م.

ومن أهم الأمور التي عرض لها بأُسلوب علمي : تحليل فكرة الاعتقاد بالمهدي (1) ، ومناقشاته لتضعيفات ابن خلدون (2) ، ونقله أكثر من ثمانٍ وخمسين (3) شهادة وتصريح بصحة أحاديث المهدي أو تواترها ، ثم مناقشته لمن أنكر ولادة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) دفاع عن الكافي | السيد ثامر العميدي 1 : 171 وما بعدها.

(2) المصدر نفسه 1 : 205.

(3) المصدر نفسه 1 : 343.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:35

المهدي ، وإيراده أدلةً وافية متينة واعترافات من أهل السنّة بدءأ من القرن الرابع الهجري وحتى قرننا الحالي بولادة الإمام المهدي ووجوده الشريف (1) ، وأخيرأ مناقشته الطريفة لفرية السرداب (2) وغيرها.

لقد أوردت هاتين الدراستين بصفتهما نموذجين حديثين للدراسات التي التزمت بمسلك العلماء المتقدمين والإفادة منهم واتّباع منهجهم ، وإلّا فهناك عشرات الدراسات لأفاضل العلماء والمحققين ممن برع في مناقشة تلك القضية (3) .

2 ـ المنهج العقلي (منهج الشهيد الصدر رضي الله عنه) :

لم ينطلق الشهيد الصدر في بحثه (قضية المهدي) من بديهيات ومقدمات مسلم بها عند الأطراف ، ولم يعتمد تتّبع القضية في كتب التفسير والرواية ، أو مناقشة ما ورد بشأنها من أسانيد ، وإنما سلك مسلكاً آخر ، فبدأ بطرح الإثارات حول القضية وعرض التساؤلات والإشكالات المنتزعة مما قيل ويقال حول القضية ، ثمّ بدأ بالمناقشة العميقة والدقيقة معتمدأ الدليل العقلي ، ومستندأ إلى معطيات العلم والحضارة المعاصرة ، ونعرض معالم هذا المنهج كما يأتي :

ألف ـ لقد مهّد السيد الشهيد لبحثه بإعطاء تصور واضحٍ لفكرة المهدي (4) في جذورها الممتدّة إلى التراث الديني والإنساني ، ثم انتقل إلى تأصيلها في الفكر الإسلامي ، ثم عرضها في التصور الإسلامي على أنّها ليست مجرّد فكرة وأمل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) دفاع عن الكافي 1 : 535.

(2) المصدر نفسه 1 : 593.

(3) راجع ما أشار إليه وذكره الشيخ العباد في دراسته المشار إليها سابقاً ، وراجع ما ذكره السيد الجلالي أيضأ في بحثه المذكور في مطلع المقدمة ، وراجع دراسة الشيخ علي محمد علي دخيل المشار إليها في الصحيفة 32.

(4) راجع الصحيفة 55 وما بعدها من هذا الكتاب.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:36

يداعب الشعور ، ويجد عنده الإنسان المسلم استراحةً تخلصه من حالة التوتر النفسي عندما تشتد وتتعاظم المحنة ـ كما هو زعم بعض الباحثين ـ وإنما (المهدي) يتجسد في إنسان معين (1) حيّ يعيش مع الناس ويشاركهم وهمومهم وآلامهم ، ويترقب مثلهم اليوم الموعود.

ب ـ إن هناك صعوبة في استيعاب هذا التصور الأصيل ، فقد أثار إشكالات وتساؤلات هي في عقول الناس ، وفي حواراتهم المعلنة أو الحبيسة ، ومن هنا بدأ الشهيد الصدر رضي الله عنه يطرح هذه التساؤلات والإثارات بكل صراحة ووضوح ، ثم يشرع في معالجتها باُسلوبه الخاص ؛ وذلك ليضع القضية في محلها الطبيعي ضمن إطار العقيدة الإسلامية التي تقوم أساسأ على العقلانية والواقعية والبرهان.

اً ـ والتساؤل الأوّل الذي يطرحه السيد الشهيد هو :

«إذا كان المهدي يُعبّر عن إنسان حيّ عاصركل تلك الأجيال المتعاقبة منذ أكثر من عشرة قرون ، وسيظل يعاصر امتداداتها ، فكيف تأتّي له هذا العمر الطويل ؟ !وكيف نجا من القوانين الطبيعية التي تحتم مروره بمرحلة الشيخوخة والهرم ؟! » ثم أخذ ينتقل من سؤال إلى سؤال ، ومن إثارة إلى إثارة بترتيب منطقي يمهد الجواب السابق للاحق ، وتترابط المضامين والمباحث ترابطآ منهجيأ محكماً . وبالنسبة إلى السؤال الأؤل أعاد طرحه كالآتي : هل بالإمكان أن يعيش الإنسان قرونأ متطاولة ، كما هو المفترض في المهدي الذي طوى من العمر أكثر من ألف ومئة وأربعين سنة (2) ؟ وهذه الصياغة للسؤال لا تختلف بشيء عن السابق ،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع الصحيفة 55 ـ 56 من هذا الكتاب .

(2) هذا التاريخ إشارة إلى الفترة من ولادة الإمام المهدي عليه السلام إلى تاريخ كتابة البحت وإنجازه في سنة 1397 هـ .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:37

وتمهيدأ للجواب أعطى إيضاحأ لأنواع الإمكان المتصورة أو المعروفة وهي الإمكان العملي ، والإمكان العلمي ، والإمكان المنطقي أو الفلسفي ، وبعد أن بين المقصود بها خلص إلى القول : بـ «أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقيأ؛ لأن ذلك ليس مستحيلأ من وجهة نظر عقلية تجريدية» وأن الإمكان العملي بالنسبة إلى نوع الإنسان ليس متاحاً الآن ، والتجربة المعاصرة لا تساعد عليه.

أما الإمكان العلمي فلا يوجد ما يبرر رفض ذلك من الناحية النظرية؛ لأن التجارب آخذه بالازدياد لتحويل الإمكان العلمي إلى إمكان عملي ، وهي سائرة بهذا الاتجاه من زاوية محاولاتها لتعطيل قانون الشيخوخة. وفي ضوء هذا لا يبقى مبرر منطقي للاستغراب والإنكار اللهم إلأ من جهة أن يسبق (المهدي) العلم نفسه فيتحول الإمكان النظري إلى إمكان عملي في شخصه قبل أن يصل العلم في تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية. وهذا أيضأ لا يوجد مبرر عقلائي لاستبعاده وإنكاره ، إذ هو نظير من يسبق العلم في اكتشاف دواء السرطان أو غيره مثلأ.

إن هذا السبق ـ كما يقول السيد الشهيد ـ في الأُطروحة الإسلامية عمومأ ـ التي صممت قضية المهدي ـ قد وقع وحصل في أكثر من مفردة وعنوان ، وقد سجّل القرآن الكريم نظائر ذلك حين أورد وأشار إلى حقائق علمية تتعلق بالكون والطبيعة وجاء العلم فأزاح الستار عنها أخيرأ ، والأكثر صراحة أن القرآن قد دؤن أمثال ذلك كما في مسألة عمر النبي نوح عليه السلام قال تعالى : (فَلِبثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً) سورة العنكبوت : 14 ، ثم ينتقل السيد الشهيد إلى افتراضٍ آخر ينشأ عن السابق وهو :

ماذا لو افترضنا أنّ قانون الشيخوخة قانون صارم ، وأنّ إطالة العمر أكثر من الحدّ الطبيعي والمعتاد خلاف القوانين الطبيعية التي دلّنا عليه الاستقراء ؟ !

وجوابه : أنه حينئذ يكون من قبيل المعجزة ، وهي ليست حالة فريدة في

--------------------------------------------------------------------------------

ص:38

تاريخ الأنبياء والمرسلين ، والأمر بالنسبة للمسلم الذي يستمد عقيدته من القرآن والسنّة المشرّفة ليس أمراً منكراً ، إذ هو يجد أنّ القانون الذي هو اكثر صرامة قد عُطّّل ، كما حدث بالنسبة إلى النبي إبراهيم الخليل عليه السلام في نجاته من النار العظيمة بعد أن أُلقي فيها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) سروة الأنبياء : 69 .

ثمّ يبيّن السيد الشهيد بعد ذلك انّ مسألة المعجزة بمفهوها الديني قد أصبحت في ضوء المنطق العلمي الحديث مفهومةً بدرجةٍ أكبر مما كانت عليه . وشرع في تقديم المعالجة الفلسفية المتينة مستنداً إلى النظريات الفلسفية الحديثة .

بً ـ وينتقل السيد الشهيد إلى سؤال آخر وهو :

لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمر المهدي إلى هذا الحدّ ، فتعطل القوانين لأجله ؟ ولماذا لا نقبل الافتراض الآخر الذي يقول : إنّ قيادة البشرية في اليوم الموعود يمكن ان تترك لشخص آخر يتمخض عنه المستقبل وتنضجه إرهاصات ذلك اليوم ؟ ويعيد صياغة السؤال كالآتي :

ما هي فائدة هذه الغيبة الطويلة ؟ وماهو المبرر لها ؟ ويعقّب هنا قائلاً : إنّ الناس لا يريدون أن يسمعوا جواباً غيبياً أي أنّهم يطالبون بتفسير اجتماعي للموقف على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها .

وللإجابة عن هذا السؤال ، يتقدم السيد الشهيد وهو متسلح بالمعرفة بقوانين الاجتماع ، وبمتطلبات التغيير الاجتماعي وقوانينه ، فيبدأ بطرح سؤال يمهد به للإجابة ، وهو :

هل يمكن أن نعتبر هذا العمر الطويل للقائد المدّخر عاملاً من عوامل نجاحه في عملية التغيير المرتقب ؟ ثمّ يجيب بالإيجاب ، ويقدم أدلّة تستند إلى فهم عميق

--------------------------------------------------------------------------------

ص:39

لحركة التاريخ ، ومستلزمات التغيير الحضاري الشامل ، وأثر الحضارات التي ينشأ الإنسان في ظلها على مستوى تفكيره ورؤاه ودوره الحضاري ، ثم يكئف المسألة في ضوء رسالة الإسلام والنقلة الحضارية التي يريدها.

وهكذا يحؤل السيد الشهيد البحث إلى دراسة اجتماعية تعتمد المقولات والمفاهيم الاجماعية ، فضلأ عن تأصيل مفاهيم ونظرات اجماعية مهمة.

جً ـ ينتقل الشهيد الصدر رضي الله عنه بعد ذلك إلى معالجة قضية أكبر ترتبط بقضية المهدي وهي :

(الإمامة المبكرة) أو (كيفية إعداد القائد الرسالي) في نظرية الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية ، فيذكر أن هذه الظاهرة (الإمامة المبكرة) عاشتها الأئة فعلاً (1) ، وقد بلغت ذروتها في الإمام المهدي والإمام الجواد من قبله .

وهذه الظاهرة ـ كما يقول رضوان الله تعالى عليه ـ «تشكل مدلولاً حسيّاً عملياً عاشه المسلمون ووعوه في تجربتهم مع الإمام بشكل وآخر ، ولا يمكن أن نطالب بإثبات لظاهر هي من الظواهر هي أوضح وأقوى من تجربة أمّة» (2) .

ويورد السيد الشهيد كثيراً من الحقائق التاريخية التي تؤكد هذه الظاهرة ، ثم يخلص إلى القول : بأخها أي الإمامة المبكرة في ضوء ذلك كانت ظاهرة واقعية وليست وهمأ أو مجرد افتراض ، وأن الا أمثلة في القرآن الكريم ، كما هو الأمر بالنسبة إلى النبي يحيى عليه السلام في قوله تعالى : (وآتيناه الحكم صبيّاً) سورة مريم : 12. وهذا ما لا يسع المسلم إنكاره.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص 319 وما بعدها ، وأيضاً الصواعق المحرقة لابن حجر : ص 223 و 224.

(2) راجع : الصواعق المحرقة كما سيذكر في محله من الكتاب المحقق ص 94.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:40

دً ـ وينتقل السيد الشهيد إلى البحث الروائي وإلى ما رذده وأثاره المشككون والخصوم قديمأ وحديثأ بقوله :

«كيف نؤمن فعلاً بوجود المهدي ؟ وهل تكني بضع روايات تنقل في بطون الكتب عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للاقتناع الكامل بالإمام الثاني عشر على الرغم مما في هذا الافتراض من كرابة وخروج عن المألوف ؟ بل كيف يمكن أن ئثبت أن للمهدي وجودأ تأريخيأ حقأ ، وليس مجرد افتراض توفرت ظروف نفسية لتثبيته ؟ »

هكذا يطرح السيد ال!ثهيد هذا السؤال بكل تفرعاته الممكنة والمنتزع بعضها مما أثاره ويثيره بعض المتأثرين بمناهج الغرب في دراسة تاريخنا الإسلامي وقضايانا الإسلامية مثل أحمد أمين في دراسته (المهدي والمهدوية) ومرا سلك حذا المسلك من الخصوم (1) .

ويتصدى السيد الشهيد للإجابة عن هذا السؤال متسلحأ ومتوسلأ بمنطق العقل والدليل العقلي ، وعندما يعرض الدليل الروائي أيضأ في المقام نجده يعرضه مدعومأ بالوثائق والواقع والتجربة التاريخية ، ولنسمعه يقول :

«إن فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل قد جاءت في أحاديث الرسول الأعظم عمومآ ، وفي روايات أئمة أهل البيت خصوصأ ، وأكدت في نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك ، وقد أحصي أربعمائة حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طرق إخواننا أهل الشئة ، كما أحصي مجموع الأخبار الواردة في الإمام المهدي من طرق الشيعة والشئة فكانت أكز من (ستة آلاف رواية) ، وهذا ـ كما يقول السيد المثهيد ـ رقم إحصائي كبير لا يتوفر نظيره في كثير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أثرنا إلى طائفة منهم في الصحيفة 16.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:41

من قضايا الإسلام البدعية التي لا يشك فيها مسلخ عادة» (1) .

ج ـ يتخذ السيد الشهيد رضي الله عنه هنا مسلكأ جديداً في الاستدلال على (الخصوصية المذهبية) أي مسألة تجسيد الفكرة (فكرة المهدي) في إنسان معين هو الإمام الثاني عشر ، مستفيدأ من الروايات والبحث الروائي ، وموظفأ ذللث بصورؤ مبدعل! في إثبات (المهدي) ، فيطرح أولأ المبررات التي يراها كافية للاقتناع ويلخصها في دليلين أحدهما أطلق عليه (الدليل الإسلامي) والآخر (العلمي) فيقول : «فبالدليل الإسلامي نثبت وجود القائد المنتظر ، وبالدليل العلمي نبرهن على أن المهدي ليس مجرد أسطورة وافتراض بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة ا لتا ريخية» .

ويشرع بتقديم الدليل الإسلامي فيراه متمثلأ بمئات الروايات الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، والأئمة من أهل البيت عليهم السلام والتي تدلّ على تعيين المهدي وكونه من أهل البيت ، ومن ولد فاطمة ، ومن ذرية الحسين عليه السلام وليس من ذرية الحسن عليه السلام ، وأنه التاسع من ولد الحسين عليه السلام ، وأن الخلفاء اثنا عشر. فإن هذه الروايات تحدد تلك الفكرة العامة وتشخفها في الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام .

ثم يقول رضوان الله تعالى عليه بشأن تلك الروايات : «وهي روايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار ـ كما ورد عن طرقنا ـ على الرغم من تحفظ الأئمة عليهم السلام واحتياطهم في طرح ذلك على المستوى العام وقاية للخلف الصالح من الاغتيال..» .

إن الروايات الكثيرة جدأ التي تشكل رقماً إحصائيأ كبيراً ـ أي بلوغها حدّ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع الصحيفة 103 ـ 104 من هزا الكتاب.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:42

التواتركا حكى غير واحد من العلماء ـ يرى السيد الشهيد أن الأساس في قبولها ليس مجرد الكزة العددية على الرغم من أنه قد استقز في الأوساط العلمية الروائية اعتبار مثل هذه الكزة ، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها.

فالحديث الشريف عن الأئمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده صلى الله عليه وآله وسلّم ، وأنهم اثنا عشر إمامأ أو خليفة أو أميراً على اختلاف مق الحديث في طرت الختلفة ، قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكز من مئتين وسبعين رواية مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والشئة بما في ذلك البخاري ومسلم والترمذي وأب داود ومسند أحمد ومستدرك الحاكم ، وقد لاحظ الشهيد الصدر رضي الله عنه هنا أن البخاري (المولود 194 ، والمتوفى 256 هـ) ، الذي نقل الحديث كان معاصرأللإمام الجواد والإمامين الهادي والعسكري وفي ذلك مغزي كبير ؟ لأنه يبرهن على أن الحديث قد شخل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يتحقق مضمونه ، وهذا يعني أن نقل الحديث لم يكن متأثرأ بالواقع الإمامي الاثني عشري أو يكون انعكاسأ له ؟ لأن الروايات المزيفة التي ئنسب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنيأ لا تسبق في ظهورها وتسجيلها كتب الحديث ، ولقد جاء الواقع الإمامي الاثنا عشري ابتداة بالإمام علي وانتهاة بالمهدي ؟ ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف.

هذا هو الدليل الإسلامي ، كما اصطلح عليه السيد الشهيد ، أي الدليل الروائي في إثبات المهدي .

أما الدليل الآخر الذي اصطلح عليه بـ (العلمي) والذي يسوقه السيد الشهيد لإثبات الوجود التاريخي للمهدي ، وأنه إنسان بعينه ولد وعاش واتصل بقواعده الشعبية وبخاصته ، فإن هذا الدليل يتكون كما يرى السيد الشهيد من التجربة التي

--------------------------------------------------------------------------------

ص:43

عاشتها أفة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريبأ وهي فترة الغيبة الصغرى. ويعطي السيد الشهيد هنا فكرة عن هذه الغيبة ، ويفلسفها ، مبينأ دور القائد المهدي ، ودورسفرائه الأربعة ، وما صدر عنه من إتوقيعات) أي رسائل وإجابات كلها جرت على أشلوب واحد ، وبخط واحد وسليقة واحدة طيلة نيابة النواب الأربعة الختلفين أسلوباً وسليقة وذوقاً وخطاً وبياناً ، ومثل هذا كاشف بالضرورة عن وجود (الرجل) ، لأنه قد ثبت واستقر في الأوساط الأدبية وبما لا يقبل الشك أن الأسلوب هو الرجل ، وكل الدارسين والمتذوقين للأدب يدركون هذه الحقيقة بوضوح.

وبعد هذه القرينة والشواهد القوية على وجود الإمام المهدي كما يؤكدها السيد الشهيد يتجه إلى منطق الاستقراء ونظريه الاحمال لتعزيز ذلك فيقول : «لقد قيل قديمأ : إن حبل الكذب قصير ، ومنطق الحياة يثبت أيضأ أن من المستحيل عمليأ بحساب الاحمالات أن تعيش أكذوبة جمهذا الشكل ، وكل هذه المدة ، وضمن كل تلك العلاقات والأخذ والعطاء ثم تكسب ثقة جميع من حوالا» .

وهكذا يخلص السيد ال!ثهيد إلى القول أخيرأ : «أن ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن أن تعتبر بمثابة تجربة علمية لإثبات ما لها من واقع موضوعي ، والتسليم بالإمام القائد ، بولادته وحياته وغيبته وإعلانه العام عن الغيبة الكبرى التي استتر بموجبها عن المسرح ولم يكشف نفسه لأحد » (1) أي حتى يأذن الله تعالى له بالظهور لتأدية دوره ووظيفته التغييرية الكبرى «فيملأ الأرض عدلأ وقسطأ بعدما فلئت ظلمأ وجورأ» ، كما بمثر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وآله ، وهذا هو ما عليه اعتقاد الإمامية ، ومقتضى توقيع الإمام الثاني عشر بإعلانه الغيبة الكبرى.

وأخيرأ واستكمالاً للبحث ، ربما يثير بعضهم سؤالأ حول المنهج الذي اتبعه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع الصحائف 104 ـ 111 من هذا الكتاب.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:44

الإمام الشهيد كما حدّدناه ، وكما هو في واقعه ـ والسؤال هو :

لماذا لم يسلك السيد الشهيد منهج المتقدمين في البحث الروائي ، ويضني عليه من إبداعاته والتفاتاته ما يزيل الشكوك والتقولات التي تثار حول أسانيد الروايات ، وتضعيف بعفهم لما ؟

وفي الجواب عن ذلك نسجل الملاحظات الآتية :

أولاً : لقد ذكر السيد الشهيد أن هناك عددأ هائلأ من الروايات بلغت رقماً إحصائيأ لم يتوفر لأية قضية مشاجمهة من قضايا الإسلام ، بل إن بعفهم حكى التواتر فيها ، وعليه فليس بوسع مسلبم إنكار ذلك أو عدم الاعتقاد بموجبه الفهم إلأ لجهة أخرى ، وليس هي إلأ جهة تعفل المسألة ، وقد حظيت باهمامه وبالتركيز عليها.

ثانياً : إن أكز المنكرين المعاصرين إنما أنكروها من زاوية عدم تعفل الفكرة أو تشخيصها ونجسيدها في إنسان ولد قبل قرون ، وما يزال ذا وجوب حي حقيقي . ومن هنا اتخه السيد الشهيد ـ بلحاظ أن القضية في حقيقتها إسلامية وليست مذهبية فحسب ـ إلى (عقلنتها) من جميع جهاتها أو ما يلابسها ، تصوراً وقبولاً وواقعاً.

ثالثاً : إن شأن الإيمان بالمهدي شأن الإيمان بمطلق ما ورد من المغيبات مما ثبت عن طريق الرواية كسؤال منكر ؤنكير في القبر ونحو ذلك مما لم يرد في البخاري ومسلم (1) ، ومع ذلك فإن أحدأ من أبناء الإسلام لا يسعه إنكاره.

رابعاً : إن الاختلاف بين المتعبدين بحجية الخبر الصحيح والإيمان بموجبه ،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع بحث الشيخ عبد المحسن العباد المنشور في مجلة الجامعة الإسلامية الصادرة بالمدينة المنورة | سنة 1969 م.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:45

وعدم جواز تكذيبه ، إنما كان في مصداق القضية المتجسد في إنسان لا في أصل قضية المهدي ، وهو مما احتاج إلى تقديم المبررات المنطقية والعلمية لقبوله.

خامسأ : إن الذين أنكروا أو شككوا بالروايات الواردة في المهدي ، وحاولوا تضعيفها ليسوا من أهل الفن والعلم بالرواية وبالأسانيد (1) ، ولذلك فليس ما يدعو إلى إتعاب النفس معهم كثيراً ، بل لا بذ من الانجاه إلى تثبيت العقيدة في نفوس المؤمنين وذلك (بعقلنتها) وتوظيفها لإعلاح شأنهم وشؤونهم. ولقد تعامل السيد ال!ثهيد مع قضية المهدي على أنها تجربة أئة ، وقضية أفة ، وكحقيقة ثابتة تاريخية تعيشحها الأفة شعورأ وأملأ وترقبأ وانتظارأ إيجابيأ فاعلأ ومؤثرأ في حياتها وجهادها المستمر بلا هوادة في مواجهة الظلم والظالمين والطغاة والجبارين ، هذا فضلأ على أن العلماء المتقدمين والمتأخرين قد أشبعوا هذا الموضوع بحثأ وتحقيقأ وناقشوا مناقشات وافية شافية كل الطعون والأقوال والتضعيفات المزعومة ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفأ.

سادساً : إن من التهافت ، والخطل في الرأي بالنسبة إلى من يؤمن بموجب الخبر الصحيح ، ويوجب تصديقه لمجرد وروده في البخاري حتى لو كان مصادمأ لبعض الحقائق الطبيعية أو منافيأ للعقل أو للذوق إذ يوجب تأويله حينئذ (2) ، حيث وردت مجموعة من الأحاديث والروايات مما يتنافى مع العقل والذوق في صحيح البخاري . ثم عندما تصل النوبة إلى مسألة (المهدي المنتظر) على تعدد طرقها ، وصحة أسانيدها في السق والمسانيد ، وعلى شرط البخاري ومسلم ، نراه يتوقف أو يتحفظ أو يتردد ، وليس لديه حجة إلأ أن المسألة ـ حسب تصوره

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع البحث السابق للشيخ العباد ، ودفاع عن الكافي | السيد ثامر العميدي 1 : 205 ـ 523.

(2) راجع : تأويل نحتلف الحديث لابن قتيبة : ص 276 ، طبعة القاهرة 1326! ، أضواء على الشئة المحمدية | الشيخ محمود أبو رئة ، دراسات في البخاري والكافي | هالثم معروف الحسني.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:46

القاصر ـ من معتقدات الشيعة (1) ، مع أنها كما ثبت عقيدة السلف والخلف من جمهور الأمّة على امتداد القرون ، كما نبّه الى ذلك الشيخ منصور علي ناصف في غاية المأمول على التاج الجامع للأصول في الجزء الخامس وفي الصحيفة ثلاثمئة واحدى وستين .

سابعاً : إنّ بحث السيد الشهيد رضي الله عنه هو مقدمة لموسوعة ضخمة تتناول بالبحث الروائي مسألة المهدي ألّفها العلاّمة السيد محمد الصدر ، والسيد الشهيد رضي الله عنه عبّر عن أمله بالمؤلّف وبأنه اوفى المسالة حقّها ومن جميع جوانبها ، ولذا فلا مبرر للبحث الروائي عنده .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع ما نقله الشيخ عبد المحسن العباد في بحثه المذكور سابقاً .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:47

عملي في التحقيق

أولاً : اعتمدث في ضبط النمق على عذة طبعات ، وهي وإن كانت متقاربة ، ولا يوجد بينها اختلاف مهم ، إلأ أننا أفدنا من مجموعها في إخراج النصق بصور ؟ دقيقة ، والطبعات هي :

1 ـ طبعة مكتبة النجاح طهران ، نشرت سنة 1978 م ، وفيها مقذمة قئمة للدكتور حامد حفني داود.

2 ـ طبعة دار التعارف ـ بيروت | الطبعة الثالثة 1981 م ، وفيها إشارة إلى أن البحث هو مقذمة كتبها الشهيد الصدر رضي الله عنه لكتاب الحجة السيد الصدر الموسوم بر (موسوعة الإمام المهدي) ، والتي أشار إليها الشهيد الصدر في آخر البحث.

3 ـ طبعة معاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي | الطبعة الأولى ـ طهران 1986 م ، رفيها مقذمة قئمة للعلأمة الشيخ محمد علي التسخيري.

ثانياً : قمتُ بتخريج الآيات القرآنية من المصحف الشريف.

ثالثاً : خرّجت الروايات من مظانها المعتبرة ومن كتب الفريقين المعتمدة .

رابعاً : وثّقت الإحالات والأقوال التي ذى ها الإمام الشهيد بالرجوع إلى مصا د رها.

خامساً : كتبت تعليقات مناسبة في الهامش إيضاحأ للإشارات والتنبيهات التي وردت في البحث.

سادساً : ذكرث بعض النكات المهمة حيثما اقتضى الأمر ذلك في ا الامش.

سابعاً : أضفنا بعض العناوين وحصرناها بين معقوفين ( ) .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:48

ثامناً : هناك بعض الهوامش للشهيد الصدر علّمنا عليها بعلامة (الشهيد الصدر) .

ولا يسعني في الختام إلاّ أن أحمد الله تعالى على ما وفقني إليه ، شاكراً لكل من أعانني على إنجاز هذا التحقيق ونشره ، مع خالص الدعاء بالتوفيق لمركز الغدير للدراسات الإسلامية لقيامه بنشر هذا الكتاب .

والحمد لله أولاً وآخراً

الدكتور

عبدالجبار شرارة

قم المقدسة 1416 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

( ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين )

القصص : 5

--------------------------------------------------------------------------------

ص:50

--------------------------------------------------------------------------------

ص:51

( مقدّمة المؤلف )

--------------------------------------------------------------------------------

ص:52

--------------------------------------------------------------------------------

ص:53

ليس المهدي تجسيدأ لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب ، بل هو عنوان لطموح ائحهت إليه البشرية بمختلف أديانهها ومذاهبها ، وصياغة لإلهام فطري (1) ، أدرك الناس من خلاله ـ على الرغم من تنوع عقائدهم ووسائلهم إلى الغيب ـ أن للإنسانية يومأ موعودأ على الأرض ، تحقّق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير ، وهدفها النهائي ، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان على مز التاريخ استقرارها وطمأنينتها ، بعد عنا طويل. بل لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيي والمستقبل المنتظر على المؤمنين دينيأ بالغيب ، بل امتذ إلى غيرهم أيضأ وانعكس حتى على أشذ الإيديولوجيات والاتجاهات العقائدية رفضأ للغيب والغيبيات ، كالمادية الجدلية التي فشرت التاريخ على أساس التناقضات ، وآمنت بيوم موعود (2) ، تصفّى

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة إلى أن هذا ارتكاز في ضمير الإنسانية ، واعتقاد سائد عند أغلب شعوب الأرض ، إذ هناك شعور قويّ يخالجُ وجدان الإنسان بظهور المنقذ عندما تتعقد الأمور ، وتتعاظم المحنة ، وتدلهم الخطوب ، ويطبق الظلم ، وهو ما تبثئر به الأديان ، ومجكيه تاريخ الحضارات الإنسانية. راجع : سيرة الأئمة الاثني عثر | هاشم معروف الحسني 2 : 516 فما نقله عن الكتب والمصادر ، ومنها : نظرية الإمامة عند الشيعة | الدكتور أحمد محمود صبحي.

(2) إشارة إلى معتقد الماركسيين وأمانيهم باليوم الموعود حيث ستسود الشيوعية ـ كما يعتقدون ـ آخر الأمر ويتوقف الصراع المرير استنادأ إلى نظريتهم الشهيرة في المادية التاريخية. راجع : فلسفتنا | الشهيد الصدرح! : ص 26 في عرض النظرية ومناقن!تها.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:54

فيه كل تلك التناقضات ويسود فيه الوئام والسلام . وهكذا نجد أن التجربة النفسية لهذا الشعور التي مارستها الإنسانيه على مر الزمن ، من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عمومأ بين أفراد الإنسان.

وحينما يدعم الدين هذا الشعور النفسي العام ، ويؤكد أن الأرض في نهاية المطاف ستمتلى قسطأ وعدلأ بعد أن ئيئت ظلما وجوراً (1) ، يعطي لذلك الشعور قيمته الموضوعية ويحوله إلى إيمان حاسم بمستقبل المسيرة الإنسانية ، وهذا الإيمان ليس مجرد مصدر للسلوة والعزاء فحسب ، بل مصدر عطاء وقوة. فهو مصدر عطاء ؟ لأن الإيمان بالمهدي إيمان برفض الظلم والجور حتى وهو يسود الدنيا كلها ، وهو مصدر قوة ودفع لا تنضب (2) ؛ لأنه بصيص نور يقاوم اليأس في نفس الإنسان ، ويحافظ على الأمل إلمشتعل في صدره مهما ادالفت الخطوب وتعملق الظلم ؟ لأن اليوم الموعود يثبت أن بإمكان العدل أن يواجه عالمأ مليئأ بالظلم والجور فيزعزع ما فيه من أركان الظلم ، ويقيم بناءه من جديد (3) ، وأن الظلم مهما نجبز وامتذ في أرجاء العالم وسيطر على مقذراته ، فهو حالة غير طبيعية ، ولا بذ أن يخهزم (4) . وتلك ا الزيمة الكبرى المحتومة للظلم وهو في قة مجده ، تضع الأمل كبيرأ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة إلى الحديث الثريف المتواتر : «لو لم يبق من الدهر إلا يومٌ لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» . راجع : صحيح سنن المصطنى لأب داود 2 : 207 ، وراجع : التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف 5 : 343.

(2) هذا ردٌّ على من يزعم بأن العقيدة ني الإمام المهدي تورث الخمول والسلبية ، وهو أبلغ رد مستفاد من الحديث الشريف نفسه.

(3) إشارة إلى دولة الإمام عليه السلام التي أشار إليها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ، راجع : التاج الجامع للأصول 5 : 343.

(4) إشارة إلى الوعد الإلهي في قوله تعالى : (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين) القصص : 5 وأيضاً إشارة إلى قوله تعالى : (ليظهره على

--------------------------------------------------------------------------------

ص:55

أمام كل فرد مظلوم ، وكل أفة مظلومة ، في القدرة على تغيير الميزان وإعادة البناء.

وإذا كانت فكرة المهدي أقدم من الإسلام وأوسع منه ، فإن معالمها التفصيلية التي حددها الإسلام جاءت أكز إشباعأ لكل الطموحات التي انشذت إلى هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الديني ، وأغنى عطاث وأقوى إثارة لأحاسيس المظلومين والمعذبين على مز التاريخ. وذلك لأن الإسلام حؤل الفكرة من غيب إلى واقع ، ومن مستقبل إلى حاضر ، ومن التطفع إلى منقذ تخمخض عنه الدنيا في المستقبل البعيد المجهول إلى الإيمان بوجود المنقذ فعلاً ، وتطفعه مع المتطفعين إلى اليوم الموعود ، واكمال كل الظروف التي تسمح له بممارسة دوره العظجم. فلم يعد المهدي فكرة ننتظر ولادتهها ، ونبوءة نتطفع إلى مصداقها ، بل واقعأ قائمأ ننتظر فاعليته ، وإنسانأ معئنأ يعيش بيننا بلحمه ودمه ، نراه ويرانا ، ويعيش مع آمالنا وآلامنا ، ويشاركنا أحزاننا وأفراحنا ، ويثمهد كل ما تزخر به الساحة على وجه الأرض من عذاب المعذبين وبؤس البائسين وظلم الظالمين ، ويكتوي بكل ذلك من قريب أو بعيد ، وينتظر بلهفة اللحظة التي يتاح له فيها أن يمذ يده إلى كل مظلوم ، وكل محروم (1) ، وكل بائس ، ويقطع دابر الظالمين.

وقد فذر الذا القائد المنتظر أن لا يعلن عن نفسه ، ولا يكشف للآخرين

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الدّين كلّه ولو كره المشركون) التوبة : 33. راجع في تفسير الآيتين الإشارة إلى المهدي عليه السلام ينابيع المودة | القندوزي الحنفي : ص 450.

(1) إشارة إلى بشارة الرسول الأعظم نبينا محمد صلى الله عليه وآله في الحديث الشريف : لا إن في أفتي المهدي ، يخرج يعيش خمساً أو سبعأ أو تسعأ (الشك من الراوي) قال : قلنا : وما ذاك ؟ قال : سنين ، قال : فيجيء إليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني أعطني قال : فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله ، رواه الترمذي. راجع : التاج الجامع للأصول | الشيخ منصور علي ناصف 5 : 343 وفيه أكز من إشارة إلى كون الإمام المهدي موجود حي يعيش في وسط الأفة ، وأن خروجه وعيشه ، سبع سنين يعني ظهوره وقيام دولته المباركة التي فيها الخلاص والعدل.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:56

حياته على الرغم من أنه يعيش معهم انتظارأ لفحظة الموعودة.

ومن الواضح أن الفكرة جمهذه المعالم الإسلامية ، تقرّب الهوّة الغيبية بين المظلومين كل المظلومين والمنقذ المنتظر ، وتجعل الجسر بينهم وبينه في شعورهم النفسي قصيرأ مهما طال الانتظار.

ونحن حيما يراد منا أن نؤمن بفكرة المهدي ، بوصفها تعبيرأ عن إنسان حيّ محدد يعيش فعلاً كما نعيش ، ويترقب كما نترقب ، يراد الإمجاء إلينا بأن فكرة الرفض المطلق لكل ظلم وجور التي يمثلها المهدي ، تجشدت فعلاً في القائد الرافض المنتظر ، الذي سيظهر وليس في عنقه بيعة لظالم كما في الحديث (1) ، وأن الإيمان به إيمان جمهذا الرفض الحي القائم فعلاً ومواكبة له.

وقد ورد في الأحاديث الحث المتواعل على انتظار الفرج ، ومطالبة المؤمنين بالمهدي أن يكونوا بانتظاره. وفي ذلك تحقيق لتلك الرابطة الروحية ، والصلة الوجدانية بينهم وبين القائد الرافض ، وكل ما يرمز إليه من قيم ، وهي رابطة وصلة ليس بالإمكان إمجادها ما لم يكن المهدي قد تجشد فعلاً في إنسان حيّ معاصر (2) .

وهكذا نلاحظ أن هذا التجسيد أعطى الفكرة زخهاً جديداً ، وجعل منها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ورد عنه عليه السلام أنه سيظهر وليس في عنقه بيعة لظالم ، راجع : الاحتجاج | الطبرسي 2 : 545 .

(2) إشارة إلى أن (المهدي) ليس مجرد خفم أو فكرة ئداعب أفكار المظلومين وتناغي ضعورهم ، بل هو حقيقة حيّة مجشدة متشخصة في ذات إنسان بعينه ، ومن هنا تكون الفكرة مُلامسة لوجدانهم ، يعيشون بها ، ويعيشون لها ، ويسهمون في التحضير والتهيئة للالتحام في المعركة الفاصلة التي سيقودها القائد المنتظر ، ولو كانت مجرد خلم أو فكرة ، فليس من المتوقع أن تكون مثل تلك الصلة الوجدانية والنعورية. ومن هنا تتأتى أهمّية الانتظار ، وتبين فلسفته وغاياته ، وهو في جملته يتّسق مع حالة الترقب والإرهاص التي تسبق ظهور المنقذين من الأنبياء والمصلحين.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:57

مصدر عطاء وقوة بدرجة أكبر ، إضافة إلى ما يجده أي إنسان رافض من سلوة وعزاء وتخفيف لما يقاسيه من آلام الظلم والحرمان ، حين يحسّ أن إمامه وقائده يشاركه هذه الآلام ويتحسّس بها فعلاً بحكم كونه إنسانأ معاصرأ ، يعيش معه وليس مجرد فكرة مستقبلية.

ولكن التجسيد المذكور أدى في نفس الوقت إلى مواقف سلبية تجاه فكرة المهدي نفسها (1) لدى عدد من الناس ، الذين صعب عليهم أن يتصوروا ذلك ويفتر ضوه.

فهم يتساءلون !

إذا كان المهدي يعبّر عن إنسان حيّ ، عاصركل هذه الأجيال المتعاقبة منذ أكثر من عشرة قرون ، وسيظل يعاصر امتداداتها إلى أن يظهر على الساحة ، فكيف تأتى لهذا الانسان ان أن يعيش هذا العمر الطويل ، وينجو من قوانين الطبيعة التي تفرض على كل إنسان أن يمز بمرحلة الشيخوخة والهرم ، في وقت سابق على ذلك جدأ ، وتؤدي به تلك المرحلة طبيعيأ إلى الموت ؟ أو ليس ذلك مستحيلاً من الناحية الواقعية ؟ (2)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) اختلفت الآراء وتباينت المواقف من مسألة المهدي المنتظر ، تبعاً لاختلاف المواقف من مسألة الغيب الديني والنصوص الدينية المشهورة والمتواترة ، على أن هناك إطباقأ بين علماء المسلمين والمحققين من أهل الحديث من السنة والشيعة على صحة العقيدة بالمهدي ، وعدم جواز التشكيك بها حتى جاء في المأثور : «مَنْ أنْكَرَ المَهْدي فَقد كَفَر...» وقد استوفى هذه المسألة بحثاً الشيخ عبدالمحسن عباد في محاضرته التي نثرتهأ مجلة الجامعة الإسلامية | العدد الثالث | 1969 م. وراجع : غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف 5 : 343.

(2) هذا تساؤل فريق من الناس ، والواقع أنه يمكن تسجيل الملاحظة السريعة الآتية ، وإن كان سيأتي جوابه تفصيلأ :

--------------------------------------------------------------------------------

ص:58

ويتساءلون أيضاً !

لماذا كل هذا الحرص من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذا الإنسان بالذات ؟ فتعطّل من أجله القوانين الطبيعية (1) ، وئفعل المستحيل لإطالة عمره والاحتفاظ به لليوم الموعود ، فهل عقمت البشرية عن إنتاج القادة الأكفاء ؟ ولماذا لا يترك اليوم الموعود لقائد يولد (2) مع فجر ذلك اليوم ، وينمو كما ينمو الناس ، ويمارس دوره بالتدريج حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلما وجوراً ؟

ويتساءلون أيضاً !

إذا كان المهدي اسما لشخص محدّد هو ابن الإمام الحادي عشر (3) من أئمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أ ـ إنه ليس مستحيلأبالمعنى المنطتي ، بل هوفي دائرة الإمكان.

ب ـ إنه ليس مستحيلاً عادة ؟ لوقوع نظاثر ذلك فعلاًً كما نصّ القرآن الكريم في مسألة نوح عليه السلام في قوله تعالى : (ِفَلَبثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً) العنكبوت : 14.

(1) إن تعطيل القوانين الطبيعية قد حدث مرارأ بالنسبة إلى معاجز الأنبياء عليهم السلام ، وهذا أمز ضروري من الدين لا مجال لنكرانه فإذا أخبر بذلك من وجبت تصديقه جاز بلا خلاف.

(2) هذا إشارة إلى عقيدة طوائف من إخواننا أهل السنّة. راجع : التاج الجامع للأصول 5 : 360 ا الامثى.

(3) هذا التساؤل أثير من قبل ويثار اليوم ، بأساليب مختلفة ، وكلها تستند إلى موهومات وافتراضات لا تقوم على أساسٍ من العلم ، بل هي مجرد تشكيكات ، ومحاولات بائسة للفرار من أصل القضية ولوازمها الضرورية ، فهي لا تعدو أن تكون أشبه بتشكيكات الماديين عندما جوبهوا بأدلة العقل والمنطق والعلم فما يتعلق بالله تعالى ، فلجأوا إلى تساؤلات ساذجة تحكي عدم إيمانهم بما قامت عليه الأدلة الوفيرة ، نظير قولهم : لو كان موجوداً فلماذا لا نراه ؟ ولماذا لايفعل كذا وكيت ؟

وهكذا شأن هؤلاء ، فعندما جوبهوا بالأدلة المنطقية والروايات المتواترة في مسألة المهدي المنتظر مما أطبق عليه الخاص والعام وبما لايسع المرء إنكاره ، لجأوا إلى التشكيك في أنه لم يعرف

--------------------------------------------------------------------------------

ص:59

أهل البيت عليهم السلام الذي ولد سنة (256 هـ) (1) وتوفي أبوه سنة (260 هـ) ، فهذا يعني أنه كان طفلاً صغيراً عند موت أبيه ، لا يتجاوز خمس سنوات وهي سن لا تكفي للمرور بمرحلة إعداد فكري وديني كامل على يد أبيه ، فكيف وبأي طريقة يكتمل إعداد هذا الشخص(2) لممارسة دوره الكبير ، دينياً وفكرياً وعلمياً ؟

ويتساءلون أيضاً!

إذا كان القائد جاهزاً ، فلماذا كلّ هذا الانتظار الطويل مئات السنين ؟

أوَليس في ما شهده العالم من المحن والكوارث الاجتماعية ما يبرّر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) لقد أثبت الشيخ المفيد في الإرشاد : ص 346 ، والشيخ السعران في اليواقيت والجواهر ج 2 | المبحث 65 ، ولادة محمد بن الحسن العسكري في عام 255 هـ ، وهما من أجلة المحققين لدى الفريقين ، وهذا ما يدحض التشكيكات التي يثيرها بعض أدعياء العلم ، فضلأ على ما يقتضيه الحديث المتواتر : لأ الأئمة اثنا دثر كلهم من قريش ؟ ، فهو لايستقيم إلأ بما تقرر لدى الإمامية ، وبما التزموا به من إمامة اثني عشر إمامأ كلهم من العترة الطاهرة ، أوالم الإمام علي ابن أب طالب عليه السلام ، وآخرهم المهدي . وهؤلاء هم المنصوص عليهم ، ويدعم ذلك ويشهد له حديث الثقلين المتواتر ، وحديث من مات لايعرف إمام زمانه ، فهما لايستقيمان إلا على عقيدة الإمامية الاثني عشرية . راجع مناقشة وافية في : الأصول العامة للفقه المقارن | العلامة محمد تقي الحكيم | بحث حجية السنّة : ص 145 وما بعدها.

(2) إن الذي تعهّد وتكفل بإعداد النبي عيسى عليه السلام ، ووهب النبي يحبى الحكم والحكة وهو صبيّ ، كما صرّح القرآن ، يمكن أن يتعهّد ويتكفل بمن أعدّه لتطهير الأرض من الظلم والجور في آخر الزمان ، كما هو نمق الخبر المتواتر في المهدي الزي هو من عترة فاطمة وذرية الحسين عليه السلام . راجع : التاج الجامع للأصول 5 : 341 ـ 343.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:60

بروزه (1) على الساحة وإقامة العدل على الأرض ؟

ويتساءلون أيضأ!

كيف نستطيع أن نؤمن بوجود المهدي ، حتى لو افترضنا أن هذا ممكن ؟ وهل يسوغ لإنسان أن يعتقد بصحة فرضية من هذا القبيل دون أن يقوم عليها دليل علمي أوشرعي قاطع ؟ (2) وهل تكفي بضع روايات تنقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا نعلم مدى صحتها (3) للتسليم بالفرضية المذكورة ؟

ويتساءلون أيضأ بالنسبة إلى ما أعدّ له هذا الفرد من دور في اليوم الموعود!

كيف يمكن أن يكون للفرد هذا الدور العظيم الحاسمم في حياة العالم ؟! مع أن الفرد مهما كان عظيما لا يمكنه أن يصنع بنفسه التاريخ ، ويدخل به مرحلة جديدة ، وإنما تختمر بذور الحركة التاريخية وجذوتها في الظروف الموضوعية وتناقضاتها ، وعظمة الفرد (4) هي التي ترشحه لكي يشكل الواجهة لتلك الظروف الموضوعية ، والتعبير العملي عما تتطلبه من حلول ؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إن هذه المسألة مرهونة باشتراطاتها الخاصة ، وكما تأخر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى زمن ظهوره المبارك لحكم وامور اقتضتها حكمة المرسل (الله) تعالى على رغم الاحتياج إليه ، فكذا الأمر هنا.

(2) سيناقش الشهيد الصدر هذه المسألة تفصيلأ.

(3) الواقع ـ وكا سيأتي ـ أنّ علماء الأمة الإسلامية أجمعوا على صحة أحاديث المهدي عليه السلام ، ولم يشذ إلا من هو ليس من أهل المعرفة بالحديث. راجع : التاج الجامع للأصول 5 : 361.

(4) لقد رأينا كيف صنع (الأبطال) تاريخ أممهم ، على أن الشهيد الصدر قدس سره هنا يقدّم فهما أصيلأ ومهما جدأ لحركة التاريخ ودور الفرد البطل ، وأمية الظروف الموضوعية في التأثير. وقد أشار توماس كارليل في كتابه (الأبطال) إلى دور البطل. راجع كتابه المذكور ، ترجمة الدكتور السباعي ـ مصر ـ سلسلة الألف كتاب.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:61

ويتساءلون أيضأ!

ما هي الطريقة التي يمكن أن نتصور من خلالها ما سيتمُّ على يد ذلك الفرد من تحوّل هائل وانتصار حاسم للعدل ورسالة العدل على كل كيانات الظلم والجور والطغيان ، على الرغم مما تملك من سلطان ونفوذ ، وما يتواجد لديها من وسائل الدمار والتدمير ، وما وصلت إليه من المستوى الهائل في الإمكانات العلمية والقدرة السياسية والاجتماعية والعسكرية ؟ (1)

هذه أسئلة قد تتردد في هذا المجال وتقال بشكل وآخر ، وليست البواعث الحقيقية لهذه الأسئلة فكرية فحسب ، بل هناك مصدر نفسي لها أيضأ ، وهو الشعور بهيبة الواقع المسيطر عالمياً ، وضآلة أي فرصة لتغييره من الجذور ، وبقدر ما يبعثه الواقع الذي يسود العالم على مز الزمن من هذا الشعور ، تتعمق الشكوك وتترادف التساؤلات. وهكذا تؤدي الهزيمة والضآلة والشعور بالضعف لدى الإنسان إلى أن يحسّ نفسياً بإرهاق شديد ، لمجرد تصور عملية التغيير الكبرى للعالم التي تفرغه من كل تناقضاته ومظالمه التاريخية ، وتعطيه محتوىً جديداً قائماً على أساس الحق والعدل ، وهذا الإرهاق يدعوه إلى التشكك في هذه الصورة ومحاولة رفضها لسبب وآخر.

ونحن الآن نأخذ التساؤلات السابقة تباعأ ؟ لنقف عند كل واحد منها وقفة قصيرة بالقدر الذي تتسع له هذه الوريقات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) في هذا إشارة إلى أسلحة الدمار (الشامل) فضلأ عن التطور التكنولوجي الذي شمل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وتأثيراتها الهانلة. إلأ أننا شهدنا كيف توجد بالمقابل الأسلحة المضادة التي كثيراً ما تعطّل تلك التأثيرات ، وكذلك رأينا تأثير المعنويات في إبطال مفعول أسلحة الخصم المختلفة أو التقليل من آثارها إلى حدّ كبير جداً ، كما حدث في الثورات والانتفاضات الشعبية.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:62

--------------------------------------------------------------------------------

ص:63

(المبحث الأوّل)

كيف تأتّى للمهدي

هذا العمر الطويل ؟

--------------------------------------------------------------------------------

ص:64

--------------------------------------------------------------------------------

ص:65

هل بالإمكان أن يعيش الإنسان قروناً كثيرة كما هو المفترض في هذا القائد المنتظر لتغيير العالم ، الذي يبلغ عمره الشريف فعلاًً أكثر من ألف ومائة وأربعين سنة ، أي حوالي (14) مرة بقدر عمر الإنسان الاعتيادي الذي يمرّ بكل المراحل الاعتيادية من الطفولة إلى الشيخوخة ؟

كلمة الإمكان هنا تعني أحد ثلاثة معاني : الإمكان العملي ، والإمكان العلمي ، والإمكان المنطقي أو الفلسفي .

وأقصد بالإمكان العملي : أن يكون الشيء ممكناً على نحو يتاح لي أو لك ، أو لإنسان آخر فعلاًً أن يحققه ، فالسفر عبر المحيط ، والوصول إلى قاع البحر ، والصعود إلى القمر ، أشياء أصبح الا إمكان عملي فعلاًً . فهناك من يمارس هذه الأشياء فعلاًً بشكل وآخر (1) .

وأقصد بالإمكان العلمي : أن هناك أشياء قد لا يكون بالإمكان عمليأ لي أو لك ، أن تُمارسها فعلاًً بوسائل المدنية المعاصرة ، ولكن لا يوجد لدى العلم ولا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ولم تكن مثل هذه الأمور بمتصورة سابقاً قبل وقوعها ، ولو حَدّثَ بها أحد من الناس قبل تحققها فعلاًً لعدّ الحديث مجرد تخيلات وأوهام.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:66

تشير اتجاهاته المتحركة إلى ما يبرر رفض إمكان هذه الأشياء ووقوعها وفقاً لظروف ووسائل خاصة ، فصعود الإنسان إلى كوكب الزهرة لا يوجد في العلم ما يرفض وقوعه ، بل إن اتجاهاته القائمة فعلاً تشير إلى إمكان ذلك ، وإن لم يكن الصعود فعلاً ميسورأ لي أو لك ؟ لأن الفارق بين الصعود إلى الزهرة والصعود إلى القمر ليس إلأ فارق درجة ، ولا يمثل الصعود إلى الزهرة إلأ مرحلة تذليل الصعاب الإضافية التي تنشأ من كون المسافة أبعد ، فالصعود إلى الزهرة ممكن علمياً وإن لم يكن ممكنأ عمليأ فعلاً (1) . وعلى العكس من ذلك الصعود إلى قرص الشمس في كبد السماء فإثه غير ممكن علمياً ، بمعنى أن العلم لا أمل له في وقوع ذلك ، إذ لا يتصور علمياً ، وتجريبيأ إمكانية صنع ذلك الدرع الواقي من الاحتراق بحرارة الشمس ، التي تمثل أئونأ هائلأ مستعرأ بأعلى درجة تخطر على بال إنسان.

وأقصد بالإمكان المنطقي أو الفلسفي : أن لا يوجد لدى العقل وفق ما يدركه من قوانين قَبْلية ـ أي سابقة على التجربة ـ ما يبرر رفض الشيء والحكم باستحالته .

فوجود ثلاث برتقالات تنقسم بالتساوي وبدون كسر إلى نصفين ليس له إمكان منطتي ؟ لأن العقل يدرك ـ قبل أن يمارس أي تجربةـ أن الثلاثة عدد فردي وليس زوجاً ، فلا يمكن أن تنقسم بالتساوي ؟ لأن انقسامها بالتساوي يعني كونها زوجاً ، فتكون فردأ وزوجاً في وقت واحد ، وهذا تناقض ، والتناقض مستحيل منطقيأ. ولكن دخول الإنسان في النار دون أن يحترق ، وصعوده للشمس دون أن تحرقه الشمس بحرارتها ليس مستحيلاً من الناحية المنطقية ، إذ لا تناقض في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الكلام في وقته دقيق علمياًً ، فهو يقول : إنه ممكن علمياً ، ولكنه لم يكن قد تحقق فعلاً ، والواقع أن كثيراً من الإنجازات في عالم الفضاء ، وتسيير المركبات الفضائية إلى كواكب وتوابع الأرض وغيرها قد أصبح حقائق في أواخر القرن العشرين.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:67

افتراض أن الهرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة ، وإئما هو مخالف للتجربة التي أثبتت تسرب الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة إلى أن يتساوى الجسمان في الحرارة.

وهكذا نعرف أن الإمكان المنطقي أوسع دائرة من الإمكان العلمي ، وهذا أوسع دائرة من الإمكان العملي.

ولا شذ في أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقيأ ؟ لأن ذلك ليس مستحيلاً من وجهة نظر عقلية تجريدية ، ولا يوجد في افتراض من هذا القبيل أي تناقض ؟ لأن الحياة كمفهوم لا تستبطن الموت السريع ، ولا نقاش في ذلك.

كما لا شكّ أيضأ ولا نقاش في أن هذا العمر الطويل ليس ممكنأ إمكانأ عمليأ ، على نحو الإمكانات العملية للنزول إلى قاع البحر أو الصعود إلى القمر ، ذلك لأن العلم بوسائله وأدواته الحاضرة فعلاً ، والمتاحة من خلال التجربة البشرية المعاصرة ، لا تستطيع أن تمدد عمر الإنسان مئات السنين ، ولهذا نجد أن أكثر الناس حرصأ على الحياة وقدرة على تسخير إمكانات العلم ، لا يحتاح لهم من العمر إلاّ بقدر ما هو مألوف.

وأما الإمكان العلمي فلا يوجد عملياً اليوم ما يبرر رفض ذلك من الناحية النظرية (1). وهذا بحث يتصل في الحقيقة بنوعية التفسير الفسلجي لظاهرة الشيخوخة والهرم لدى الإنسان ، فهل تعبز هذه الظاهرة عن قانون طبيعي يفرض على أنسجة جسم الإنسان وخلاياه ـ بعد أن تبلغ قمة نموها ـ أن تتصلب بالتدريج

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نعم ، لا يوجد مبرر علمي واحد يرفض هذه النظرية ، بل إن علماء الطبّ منشغلون فعلاً بمحاولات حثيثة لإطالة عمر الإنسان ، وإن هناك عشرات التجارب التي تتممّ في هذا المجال ، وذلك وحده ينهض دليلاً قوياً على الإمكان النظري أو العلمي.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:68

وتصبح أقل كفاءة للاستمرار في العمل ، إلى أن تتعطل في لحظة معينة ، حتى لو عزلناها عن تأثير أي عامل خارجي ؟ أو أن هذا التصلب وهذا التناقص في كفاءة الأنسجة والخلايا الجسمية للقيام بأدوارها الفسيولوجية ، نتيجة صراع مع عوامل خابىجية كالميكروبات أو التسمم الذي يتسرب إلى الجسم من خلال ما يتناوله من غذاء مكثف ؟ أو ما يقوم به من عمل مكثف أو أي عامل آخر ؟

وهذا سؤال يطرحه العلم اليوم على نفسه ، وهو جاد في الإجابة عنه ، ولا يزال للسؤال أكثر من جواب على الصعيد العلمي.

فإذا أخذنا بوجهة النظر العلمية التي تتجه إلى تفسير الشيخوخة والضعف الهرمي ، بوصفه نتيجة صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية معينة ، فهذا يعني أن بالإمكان نظرياً ، إذا عُزلت الأنسجة التي يتكون منها جسم الإنسان عن تلك المؤثرات المعيّنة ، أن تمتد بها الحياة وتتجاوز ظاهرة الشيخوخة وتتغلب عليها نهائياً.

وإذا أخذنا بوجهة النظر الأخرى ، التي تميل إلى افتراض الشيخوخة قانوناً طبيعياً للخلايا والأنسجة الحيّة نفسها ، بمعنى أنها تحمل في أحشائها بذرة فنائها المحتوم ، مروراً بمرحلة الهرم والشيخوخة وانتهاءً بالموت.

أقول :

إذا أخذنا بوجهة النظر هذه ، فليس معنى هذا عدم افتراض أي مرونة في هذا القانون الطبيعي ، بل هو ـ على افتراض وجوده ـ قانون مرن ؛ لأننا نجد في حياتنا الاعتيادية ؟ ولأن العلماء يشاهدون في مختبراتهم العلمية ، أن الشيخوخة كظاهرة فسيولوجية لا زمنية ، قد تأتي مبكرة ، وقد تتأخر ولا تظهر إلأ في فترة متأخرة ، حتى إن الرجل قد يكون طاعنأ في السن ولكنه يملك أعضاء لينة ، ولا

--------------------------------------------------------------------------------

ص:69

تبدو عليه أعراض الشيخوخة كما نصّ على ذلك الأطباء (1) . بل إن العلماء استطاعوا عمليأ أن يستفيدوا من مرونة ذلك القانون الطبيعي المفترض ، فأطالوا عمر بعض الحيوانات مئات المرات بالنسبة إلى أعمارها الطبيعية ؟ وذلك بخلق ظروف وعوامل تؤجل فاعلية قانون الشيخوخة .

وبهذا يثبت عملياً أن تأجيل هذا القانون بخلق ظروف وعوامل معيّنة أمر ممكن عملياً ، ولئن لم يتح للعلم أن يمارس فعلاً هذا التأجيل بالنسبة إلى كائنٍ معقد معين كالإنسان ، فليس ذلك إلاّ لفارق درجة بين صعوبة هذه الممارسة بالنسبة إلى الإنسان وصعوبتها بالنسبة إلى أحياء أخرى . وهذا يعني أن العلم من الناحية النظرية وبقدر ما تشير إليه انجاهاته المتحركة لا يوجد فيه أبداً ما يرفض إمكانية إطالة عمر الإنسان ، سواء فشرنا الشيخوخة بوصفها نتاج صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية أو نتاج قانون طبيعي للخليّة الحيّة نفسها يسير بها نحو الفناء.

ويتلخص من ذلك : أن طول عمر الإنسان وبقاءه قروناً متعددة أمر ممكن منطقياً وممكن عملياً ، ولكنه لا يزال غير ممكن عملياً ، إلاّ أن اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل.

وعلى هذا الضوء نتناول عمر المهدي عليه الصلاة والسلام وما أحيط به من استفهام أو استغراب ، ونلاحظ :

إنه بعد أن ثبت إمكان هذا العمر الطويل منطقياً وعلمياً ، وثبت أن العلم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) يؤكد الأطباء والدراسات الطبية على هذه الملاحظة ، وأن لديهم مشاهدات كثيرة في هذا المجال ، ولعل هذا هو الذي دفعهم إلى إجراء محاولات وتجارب لإطالة العمر الطبيعي للإنسان ، وكالمعتاد كان مسرح التجربة في البداية هي الحيوانات لميسورية ذلك ، وعدم وجود محاذير اخرى تمنع إجراء مثل تلك التجارب على الإنسان .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:70

سائر في طريق تحويل الإمكان النظري إلى إمكان عملي تدريجأ ، لا يبقى للاستغراب محتوىً إلاّ استبعاد أن يسبق المهدي العلم نفسه ، فيتحول الإمكان النظري إلى إمكان عملي في شخصه قبل أن يصل العلم في تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية على هذا التحويل ، فهو نظير من يسبق العلم في اكتشاف دواء ذات السحايا أو دواء السرطان.

وإذا كانت المسألة هي أنه كيف سبق الإسلام ـ الذي صمّم عمر هذا القائد المنتظر ـ حركة العلم في مجال هذا التحويل ؟

فالجواب : أنه ليس ذلك هو المجال الوحيد الذي سبق فيه الإسلام حركة العلم.

أوليست الشريعة الإسلامية ككل قد سبقت حركة العلم والتطور الطبيعي للفكر الإنساني قروناً عديدة ؟ (1)

أوَلم تناد بشعارات طرحت خططاً للتطبيق لم ينضج الإنسان للتوصل إليها في حركته المستقلة إلاّ بعد مئات السنين ؟

أوَلم تأت بتشريعات في غاية الحكة ، لم يستطع الإنسان أن يدرك أسرارها ووجه الحكة فيها إلأ قبل برهة وجيزة من الزمن ؟

أوَلم تكشف رسالة السماء أسراراً من الكون لم تكن تخطر على بال إنسان ، ثم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هذه التساؤلات التي يثيرها السيد الشهيد رضي الله عنه تهدف إلى ترسيخ حقيقة مهمة ، هي أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عندما بشر (بالمهدي) ، وهو حالة غير اعتيادية في سياق البشرية ، تنبئ في جملتها عن تسجيل سبقٍ في الإمكانية العملية ، بحد تأكيد الإمكانية العلمية ، أى لبقاء الإنسان مدة أطول بكثير من المعتاد ، فإن مثل هذا السبق في التنبيه على حقائق ني هذا الوجود كان قد سجّله القرآن والحديث الشريف في موارد كثيرة جدأ في مسائل الطبيعة والكون والحيا ة. راجع : القرآن والعلم الحديث | الدكتور عبدالرزاق نوفل .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:71

جاء العلم ليثبتها ويدعمها ؟

فإذا كنا نؤمن بهذا كله ، فلماذا نستكثر على مرسل هذه الرسالة ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسبق العلم في تصميم عمر المهدي ؟ (1) وأنا هنا لم أتكلم إلأ عن مظاهر السبق التي نستطيع أن نحسّها نحن بصورة مباشرة ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك مظاهر السبق التي تحذثنا بها رسالة السماء نفسها.

ومثال ذلك أنها تخبرنا بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أسري به ليلأ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهذا الإسراء (2) إذا أردنا أن نفهمه في إطار القوانين الطبيعية ، فهو يعبز عن الاستفادة من القوانين الطبيعية بشكل لم يتح للعلم أن يُحقّقه (3) إلأ بعد مئات السنين ، فنفس الخبرة الربانية التي أتاحت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم التحرك السريع قبل أن يتاح للعلم تحقيق ذلك ، أتاحت لآخر خلفائه المنصوصين العمر المديد ، قبل أن يتاح للعلم تحقيق ذلك.

نعم ، هذا العمر المديد الذي منحه الله تعالى للمنقذ المنتظر يبدو غريبأ في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة إلى أن هذا من قبيل الإعجاز أيضاً ، وهو إفاضة ربانية خاصة ، وهذا أمر لا يسع المسلم إنكاره ، بعد أن أخبرت بأمثا له الكتب السماوية ، وبالأخص القرآن ، كالذي ورد في شأن عمر الني نوح عليه السلام ، وكذا ما أخبر به القرآن من المغيبات الأخرى ، على أن كثيراً من أهل السنّة ومن المتصوفة وأهل العرفان يؤمنون بوقوع الكرامات ومايشبه المعجزات للأولياء والصلحاء والمقزبين من حضرة المولى تعالى. راجع : التصوف والكرامات | الشيخ محمد جواد مغنية . وراجع : التاج الجامع للأصول 5 : 228 | كتاب الزهد والرقائق ـ الذين تكلموا في المهد.

(2) إشارة إلى الآية المباركة : (سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ...) الإسراء : 1 .

(3) إشارة إلى تصميم المركبات الفضانية ، وركوب الفضاء والتوغل إلى مسافات بعيدة عن أرضنا ، وقطعها في ساعات أو أيام معدودة ، وقد أضحت هذه حقائق في حياتنا المعاصرة في أواخر القرن العشرين.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:72

حدود المألوف حتى اليوم في حياة الناس ، وفي ما أنجز فعلاً من تجارب العلما ،.

ولكن!

أو ليس الدور التغييري الحاسم الذي أُعدّ له هذا المنقذ غريبأ في حدود المألوف في حياة الناس ، وما مزت جمعهم من تطورات التاريخ ؟

أو ليس قد أنيط به تغيير العالم ، وإعادة بنائه الحضاري من جديد على أساس الحق والعدل ؟

فلماذا نستغرب إذا اتّسم التحضير لهذا الدور الكبير ببعض الظواهر الغريبة والخارجة عن المألوف كطول عمر المنقذ المنتظر ؟ فإن غرابة هذه الظواهر وخروجها عن المألوف مهما كان شديداً ، لا يفوق بحال غرابة نفس الدور العظيم الذي يجب على اليوم الموعود إنجازه. فإذا كنا نستسيغ ذلك الدور الفريد (1) تاريخيأ على الرغم من أنه لا يوجد دور مناظر له في تاريخ الإنسان ، فلماذا لا نستسيغ ذلك العمر المديد الذي لا نجد عمرأ مناظرأ له في حياتنا المألوفة ؟

ولا أدري!

هل هي صدفة أن يقوم شخصان فقط بتفريغ الحضارة الإنسانية من محتواها الفاسد وبنائها من جديد ، فيكون لكل منهما عمر مديد يزيد على أعمارنا الاعتيادية أضعافاً مضاعفة ؟

أحدهما مارس دوره في ماضي البشرية وهو النبي نوح ، الذي نصّ القرآن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة إلى ما أعذ للإمام المهدي المنتظر من دور ومهمة تغييرية على مستوى الوجود الإنساني برمته كما يشير الحديث الصحيح : «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلما وجوراً» ، وهذا الدور وهذه المهمة عليها الإجماع بين علماء الإسلام ، والاختلاف حصل في أمور فرعية. ومن هنا كان التساؤل الذي أثاره السيد الشهيد رضي الله عنه له مبرر منطقي قوي.

--------------------------------------------------------------------------------

ص:73

الكريم (1) على أنه مكث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ، وقدّر له من خلال الطوفان أن يبني العالم من جديد .

والآخر يمارس دوره في مستقبل البشرية وهو المهدي الذي مكث في قومه حتى الآن أكثر من ألف عام وسيقدّر له في اليوم الموعود أن يبني العالم من جديد .

فلماذا نقبل نوح الذي ناهز ألف عام على أقل تقدير ولا نقبل المهدي ؟ (2)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) في الآية المباركة : (فَلَبثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً) العنكبوت : 14.

(2) السؤال موجّه إلى المسلمين المؤمنين بالقرآن الكريم وبالحديت النبوي الشريف ، وقد روى علماء السنّة لغير نوح ما هو أكثر من ذلك. راجع تهذيب الأسماء واللغات | النووي 1 : 176 ، ولايصخ أن يشكل أحد بأن ذاك أخبر به القرآن فالنمق قطعي الثبوت ، وهو يتعلق بالنبى المرسل نوح عليه السلام ، أما هنا فليس لدينا نصّ قطعي ، ولا الأمر متعلق بنبيّ .

والجواب : أن المهمة أولأ واحدة ، وهي تغيير الظلم والفساد ، وأن الوظيفة كما أوكلت إلى النبي ، فقد اوكلت هنا إلى من اختاره الله تعالى أيضأكما هو لسان الروايات الصحيحة. قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : « لَوْ لَمْ يَبِقْ مِنَ الدنيا إلاّ يومٌ لطوّل اللهُ ذلك اليَوم حتّى يَبعثَ رَجُلاً مِنْ أهلِ بيتي يملأ الأرضَ قِسْطاً وَعدلاً ...» التاج الجامع للأصول 5 : 343 .

وأما من جهة قطعية النص ، فأحاديث المهدي بلغت حدّ التواتر ، وهو موجب للقطع والعلم ، فلا فرق في المقامين. راجع : التاج الجامع للأصول 5 : 341 و 360 فقد نقل التواتر عن الشوكاني ، وانتهى المحققون من علماء الفريقين إلى القول بأنّ من كفر بالمهدي فقد كفر بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وليس ذلك إلاّ بلحاظ أنه ثبت بالتواتر ، وأنه من ضرورات الدين ، والمنكر لذلك كافر إجماعاً . وراجع : الإشاعة لأشراط الساعة | البرزنجي في بحثه حول المهدي . وقد نقلنا حكاية التواتر في المقدمة أيضأ.

(المبحث الثاني)

المعجزة والعمر الطويل

--------------------------------------------------------------------------------

ص:76

--------------------------------------------------------------------------------

ص:77

وقد عرفنا حتى الآن أنّ العمر الطويل ممكن علمياً ، ولكن لنفترض أنه غير ممكن علمياً ، وانّ قانون الشيخوخة والهرم قانون صارم لا يمكن للبشرية اليوم ، ولا على خطها الطويل ان تتغلب عليه ، وتغير من ظروفه وشروطه ، فماذا يعني ذلك ؟ إنّه يعني أنّ إطالة عمر الإنسان ـ كنوحٍ أو كالمهدي ـ قروناً متعددة ، هي على خلاف القوانين الطبيعية التي أثبتها العلم بوسائل التجربة والاستقراء الحديثة ، وبذلك تصبح هذه الحالة معجزة عطلت قانوناً طبيعياً في حالة معينة للحفاظ على حياة الشخص الذي أنيط به الحفاظ على رسالة السماء ، وليست هذه المعجزة فريدة من نوعها ، او غريبة على عقيدة المسلم المستمدة من نصّ القرآن والسنّة (1) ، فليس قانون الشيخوخة والهرم أشدّ صرامة من قانون انتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساويا ، وقد عطّل هذا القانون لحماية حياة أبراهيم عليه السلام حين كان الأسلوب الوحيد للحفاظ عليه تعطيل ذلك القانون . فقيل للنار حين ألقي فيها إبراهيم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) أنبياء : 69 ، فخرج منها كما دخل سليماً لم يصبه أذىً ، إلى كثير من القوانين الطبيعية التي عطّلت

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أي أنّ الأمر يصبح من قبيل المعجز ، وهو ما نطق به القرآن ، وجاء في صحيح السنّة المطهرة ، والإعجاز حقيقة رافقت دعوة الأنبياء ، وادّعاء سفارتهم عن الحضرة الإلهية ، وهو ما لا يسع المسلم إنكاره أو الشك فيه ، بل إنّ غير المسلم يشارك المسلم في الاعتقادات بالمعجزات .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:78

لحماية أشخاص من الأنبياء وحجج الله على الارض ، ففلق البحر لموسى (1) ، وشبّه للرومان أنهم قبضوا على عيسى (2) ولم يكونوا قد قبضوا عليه ، وخرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من داره وهي محفوفة بحشود قريش التي ظلّت ساعات تتربص به لتهجم عليه ، فستره الله تعالى عن عيونهم وهو يمشي بينهم (3) . كلّ هذه الحالات تمثل قوانين طبيعية عطّت لحماية شخص ، كانت الحكمة الربانية تقتضي الحفاظ على حياته ، فليكن قانون الشيخوخة والهرم من تلك القوانين .

وقد يمكن ان نخرج من ذلك بمفهوم عام وهو انه كلّما توقف الحفاظ على حياة حجة لله في الارض على تعطيل قانون طبيعي ، وكانت إدامة حياة ذلك الشخص ضرورية لإنجاز مهمته التي اُعدّ لها ، تدخلت العناية الربانية في تعطيل ذلك القانون لإنجاز ذلك ، وعلى العكس اذا كان الشخص قد انتهت مهمته التي اُعِدّ لها ربانياً فإنه سيلقى حتفه ويموت أو يستشهد وفقاً لما تقرره القوانين الطبيعية .

ونواجه عادة بمناسبة هذا المفهوم العام السؤال التالي :كيف يمكن ان يتعطل القانون (4) ؟ وكيف تنفصم العلاقة الضرورية التي تقوم بين الظواهر الطبيعية ؟ وهل هذه إلاّ مناقضة للعلم الذي اكتشف ذلك القانون الطبيعي ، وحدّده هذه العلاقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة الى قوله تعالى : (فَأَُوْحُيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) الشعراء : 63 .

(2) إشارة الى قوله تعالى : (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ...) النساء : 157 .

(3) راجع : سيرة ابن هشام 2 : 127 ، فقد نقل هذه الحادثة وهي مجمعٌ عليها .

(4) قد يقال : إنّ القانون بصفته قانوناً لابدّ أن يطّرد ، ولا يتصور التعطيل والانخرام ، وقد لاحظ بعضهم أنّ الانخرام إنما هو بقانون آخر ، كما هو الأمر بالنسبة إلى قانون الجاذبية ، الذي يستلزم جذب الأشياء الى المركز ، ومع ذلك فإنّ الماء يصعد بعملية الامتصاص في النباتات من الجذر إلى الأعلى بواسطة الشعيرات ، وهذا بحسب قانون آخر هو (الخاصية الشعرية) . راجع : القرآن محاولة لفهم عصري | الدكتور مصطفى محمود .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:79

الضرورية على أسس تجريبية واستقرائية ؟!

والجواب : أنّ العلم نفسه قد أجاب عن هذا السؤال بالتنازل عن فكرة الضرورة في القانون الطبيعي ، وتوضيح ذلك : إنّ القانون الطبيعية يكتشفها العلم على اساس التجربة والملاحظة المنتظمة ، فحين يطّرد وقوع ظاهرة طبيعية عقيب ظاهرة أخرى يستدل بهذا الاطّراد على قانون طبيعي ، وهو أنه كلّما وجدت الظاهرة الاولى وجدت الظاهرة الثانية عقيبها ، غير أنّ العلم لا يفترض في هذا القانون الطبيعي علاقة ضرورية بين الظاهرتين نابعة من صميم هذه الظاهرة وذاتها ، وصميم تلك وذاتها ؛ لأنّ الضرورة حالة غيبية ، لا يمكن للتجربة ووسائل البحث الاستقرائي والعلمي إثباتها ، ولهذا فإنّ منطق العلم الحديث يؤكد أنّ القانون الطبيعي ـ كما يعرّفه العلم ـ لا يتحدث عن علاقة ضرورية ، بل عن اقتران مستمر بين ظاهرتين (1) ، فإذا جات المعجزة وفصلت إحدى الظاهرتين عن الاخرى في قانون طبيعي لم يكن ذلك فصماً لعلاقة ضرورية بين الظاهرتين .

والحقيقة أنّ المعجزة بمفهومها الديني ، قد أصبحت في ضوء المنطق العلمي الحديث مفهومة بدرجة أكبر مما كانت عليه في ظلّ وجهة النظر الكلاسيكية الى علاقات السببية .

فقد كانت وجهة النظر القديمية تفترض أنّ كلّ ظاهرتين اطرّد اقتران إحداهما بالأخرى فالعلاقة بينهما علاقة ضرورة ، والضرورة تعني أنّ من المستحيل ان تنفصل إحدى الظاهرتين عن الاخرى ، ولكن هذه العلاقة تحولت في منطق العلم الحديث إلى قانون الاقتران أو التتابع المطّرد (2) بين الظاهرتين دون افتراض تلك الضرورة الغيبية .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) وقد بسط الشهيد الصدر القول في هذه المسألة في كتابه فلسفتنا فراجع ص 295 و 299 .

(2) راجع فلسفتنا : ص 282 وما بعدها .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:80

وبهذا تصبح المعجزة حالة استثنائية لهذا الاطّراد في الاقتران أو التتابع دون ان تصطدم بضرورة او تؤدي الى استحالة .

وأما على ضوء الاسس المنطقية للاستقراء (1) فنحن نتفق مع وجهة النظر العلمية الحديثة ، في أنّ الاستقراء لا يبرهن على علاقة الضرورة بين الظاهرتين ، ولكنّا نرى أنّه يدلّ على وجود تفسير مشترك لاطّراد التقارن او التعاقب بين الظاهرتين باستمرار ، وهذا التفسير المتشرك كما يمكن صياغته على أساس افتراض الضرورة الذاتية ، كذلك يمكن صياغته على أساس افتراض حكمة دعت منظم الكون إلى ربط ظواهر معينة بظواهر أخرى باستمرار ، وهذه الحكمة نفسها تدعو أحياناً إلى الاستثناء فتحدث المعجزة .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع بسط وشرح النظرية في «الأسس المنطقية للاستقراء» حيث توصل الإمام الشهيد الصدر رضي الله عنه الى اكتشاف مهم وخطير على صعيد نظرية المعرفة بشكل عام .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:81

(المبحث الثالث)

لماذا كل هذا

لاحرص على إطالة عمره ؟

--------------------------------------------------------------------------------

ص:82

--------------------------------------------------------------------------------

ص:83

ونتناول الآن السؤال الثاني ، وهو يقول :

لماذا كلّ هذا الحرص من الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات ، فتُعطّل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره ؟ ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخض عنه المستقبل ، وتضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على السلاحة ويمارس دوره المنتظر .

وبكلمة أخرى : ما هي فائدة هذه الغيبة الطويلة وما المبرّر لها ؟

وكثير من الناس يسألون هذا السؤال وهم لا يريدون ان يسمعوا جواباً غيبياً ، فنحن نؤمن بأنّ الأئمة الاثني عشر مجموعة فريدة (1) لا يمكن التعويض عن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) اشارة الى معتقد الإمامية الاثني عشرية المستند إلى أدلة المعقول والمنقول ، وبالأخص إلى حديث الثقلين المتواتر «إنّي تركتم فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي» . راجع : صحيح مسلم 4 : 1873 وراجع الصواعق المحرقة لابن حجر : ص 89 ، قال : ثمّ اعلم أنّ لحديث التمسّك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً .

وكذلك إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ..» وإلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «الخلفاء بعدي اثنا عشر كلهم من قريش» . ومفاد ذلك كله تقرير هذا المعنى .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:84

أي واحد منهم ، غير أنّ هؤلاء المتسائلين يطالبون بتفسير اجتماعي للموقف ، على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها والمتطلبات المفهومة لليوم الموعود .

وعلى هذا الاساس نقطع النظر مؤقتاً عن الخصائص التي نؤمن بنوفرها في هؤلاء الائمة المعصومين (1) ونطرح السؤال التالي :

إننا بالنسبة إلى عملية التغيير المرتقبة في اليوم الموعود ، بقدر ما تكون مفهومة على ضوء سنن الحياة وتجاربها ، هل يمكن ان نعتبر هذا العمر الطويل لقائدها المدّخر عاملاً من عوامل إنجاحها ، وتمكنه من ممارستها وقيادتها بدرجة أكبر ؟

ونجيب عن ذلك بالإيجاب ، وذلك لعدة أسباب منها ما يلي :

إنّ عملية التغيير الكبرى تتطلب وضعاً نفسياً فريداً في القائد الممارس لها ، مشحوناً بالشعور .. بالتفوق والإحساس بضآلة الكيانات الشامخة التي أعُدّ للقضاء عليها ، وتحويلها حضارياً إلى عالم جديد .

فبقدر ما يعمر قلب القائد المغيّر من شعور بتفاهة الحضارة التي يصارعها ، وإحساس واضح بأنها مجرد نقطة على الخط الطويل لحضارة الإنسان ، يصبح أكثر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) تحدّث النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً عن خصائصهم وأدوارهم ، ووظيفتهم ومهماتهم ، وأنهم حملة الشريعة ، وسفن النجاة ، وأمان الأمّة ، وعصمتها من الضلال ، كما اليه الإشارة في حديث الثقلين ، وحديث لن يفترقا وكلاهما يؤكدان عصمتهم ، إذ لا يعقل أنهم عصمة اُمّة من الضلال ، وأنهم لن يفترقا عن القرآن المعصوم ، وهم غير معصومين !!

راجع في هذا المطلب : الأصول العامة للفقه المقارن | العلامة محمد تقي الحكيم | مبحث حجية السنّة : ص 169 وما بعدها .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:85

قدرة من الناحية النفسية (1) على مواجهتها والصمود في وجهها ومواصلة العمل ضدها حتى النصر .

ومن الواضح أنّ الحجم المطلوب من هذا الشعور النفسي يتناسب مع حجم التغيير نفسه ، وما يراد القضاء عليه من حضارة وكيان ، فكلما كانت المواجهة لكيان أكبر ولحضارة أرسخ وأشمخ تطلّبت زخماً أكبر من هذا الشعور النفسي المفعم .

ولما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم مليء بالظلم وبالجور ، تغييراً شاملاً بكل قيمه الحضارية وكياناته المتنوعة ، فمن الطبيعي ان تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر في شعوره النفسي من ذلك العالم كله ، عن شخص ليس من مواليد ذلك العالم الذين نشأوا في ظل تلك الحضارة التي يراد تقويضها واستبدال حضارة العدل والحق بها ؛ لأنّ من ينشأ في ظل حضارة راسخة ، تعمر الدنيا بسلطانها وقيمها وفكارها ، يعيش في نفسه الشعور بالهيبة تجاهها ؛ لأنّه ولد وهي قائمة ونشأ صغيراً وهي جبارة ، وفتح عينيه على الدنيا فلم يجد سوى أوجهها المختلفة .

وخلافاً لذلك ، شخص يتوغل في التاريخ عاش الدنيا قبل أن ترى تلك الحضارة النور ، ورأى الحضارات الكبير سادت العالم الواحدة تلو الأخرى ثمّ تداعت وانهارت (2) ، رأى ذلك بعينيه ولم يقرأه في كتاب تاريخ ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أن يكون القائد التاريخي مهيّئاً نفسياً ومعدّاً إعداداً مناسباً لأداء المهمة ، أمرٌ مفروغ منه ، ولو رجعنا الى القرآن الكريم لوجدناه يتحدث عن هذه المسألة في تاريخ الأنبياء بصورة واضحة جداً ، وبخاصة فيما يتعلق بالنبي نوح عليه السلام ، وهو أمر يلفت الانتباه والنظر ، وربما يكون للتشابه والاتفاق في الدور والمهمة التي أوكلت لهما ، كما نبّه الشهيد الصدر رضي الله عنه إليه .

راجع : مع الأنبياء | عفيف عبد الفتاح طبارة .

(2) ويمكن ان وتقرّب هذا المعنى بما عشناه وشاهدناه من صعود الاتحاد السوفيتي وترقية حتى صار

--------------------------------------------------------------------------------

ص:86

ثمّ رأى الحضارة التي يقدّر لها أن تكوّن الفصل الأخير من قصة الإنسان قبل اليوم الموعود ، رآها وهي بذور صغيرة لا تكاد تتبين ..

ثمّ شاهدها وقد اتخذت مواقعها في أحشاء المجتمع البشري تتربص الفرصة لكي تنمو وتظهر ..

ثمّ عاصرها وقد بدأت تنمو وتزحف وتصاب بالنكسة تارة ويحالفها التوفيق تارة أخرى ..

ثمّ واكبها وهي تزدهر وتتعملق وتسيطر بالتدريج على مقدّرات عالم بكامله ، فإنّ شخصاً من هذا القبيل عاش كلّ هذه المراحل بفطنة وانتباه كاملين ينظر إلى هذا العملاق ـ الذي يريد أن يصارعه ـ من زاوية ذلك الامتداد التاريخي الطويل الذي عاشه بحسّه لا في بطون كتب التاريخ فحسب ، ينظر إليه لا بوصفه قدراً محتوماً ، ولا كما كان ينظر (جان جاك روسو) (1) إلى الملكيّة في فرنسا ، فقد جاء عنه انّه كان يرعبه مجرد أن يتصور فرنسا بدون ملك ، على الرغم من كونه من الدعاة الكبار فكرياً وفلسفياً الى تطوير الوضع السياسي القائم وقتئذٍ ؛ لأنّ (روسو) هذا نشأ في ظل الملكيّة ، وتنفس هواءها طيلة حياته ، وأما هذا الشخص المتوغل في التاريخ ، فله هيبة التاريخ ، وقوة التاريخ ، والشعور المفعم بأنّ ما حوله من كيان وحضارة وليد يوم من أيام التاريخ ، تهيأت له الأسباب فُوُجِد ، وستتهيأ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

القطب الثاني في العالم ، وتقاسم هو وأمريكا النفوذ الحضاري والهيمنة السياسية ، وركبا معاً أجواء الفضاء ، ثمّ شهدنا انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك أوصاله بمثل تلك السرعة القياسية في الانهيار ، فكم كان لذلك من أثر ؟ وكم كان فيه من عبرة ؟ وكم فيه من دلالة عميقة ؟

(1) جان جاك روسو (1712 ـ 1778 م) كاتب وفيلسوف فرنسي اعتبره بعض النقاد الوجه الأبعد نفوذاً في الادب الفرنسي الحديث والفلسفة الحديثة ، وقد مهدت كتاباته ومقالاته للثورة الفرنسية ، وأشهر مؤلفاته العقد الاجتماعي . راجع : موسوعة المورد | منير البعلبكي 8 : 169 .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:87

الأسباب فيزول ، فلا يبقى منه شيء كما لم يكن يوجد منه شيء بالأمس القريب أو البعيد ، وانّ الأعمار التاريخية للحضارات والكيانات مهما طالت فهي ليست إلاّ أياماً قصيرة في عمر التاريخ الطويل .

هل قرأت سورة الكهف ؟

وهل قرأت عن أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى (1) ؟ وواجهوا كياناً وثنياً حاكماً ، لا يرحم ولا يتردد في خنق أي بذرة من بذور التوحيد والارتفاع عن وحدة الشرك ، فضاقت نفوسهم ودبّ إليها اليأس وسدّت منافذ الأمل أمام أعينهم ، ولجأوا إلى الكهف يطلبون من الله حائلاً لمشكلتهم بعد أن أعيتهم الحلول ، وكبر في نفوسهم أنّ يظل الباطل يحكم ويظلم ويقهر الحق ويصفّى كلّ من يخفف قلبه للحق .

هل تعلم ماذا صنع الله تعالى بهم ؟

إنه أنامهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين (2) في ذلك الكهف ، ثمّ بعثهم من نومهم ودفع بهم إلى مسرح الحياة ، بعد أن كان ذلك الكيان الذي بهرهم بقوتهم وظلمه قد تداعى وسقط ، واصبح تاريخاً لا يُرعب احداً ولا يُحرّك ساكناً كل ذلك لكي يشهد هؤلاء الفتية مصرع ذلك الباطل الذي كبر عليهم امتداده وقوته واستمراره ويرو انتهاء امره باعينهم ويتصاغر الباطل في نفوسهم .

ولئن تحققت لأصحاب الكهف هذه الرؤية الواضحة في كل ما تحمّل من زخم وشموخ نفسيّين من خلال ذلك الحدث الفريد الذي مددّ حياتهم ثلاثمائة سنة ، فإن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) اشارة الى الآية القرآنية المباركة : (إِنَّهُم فِتيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدنَهُمْ هُدًى ... ) الكهف : 13 ، وراجع تفسيرها في الكاشف | الزمخشري 2 : 706 ، نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت .

(2) إشارة إلى الآية : (وَلَبِثُوا فِي كَهفِهِم ثَلَـثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازدَادُوا تِسعاً ... ) الكهف : 25 .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:88

الشيء نفسه يتحقق للقائد المنتظر من خلال عمره المديد الذي يتيح له أن يشهد العملاق وهو قزم والشجرة الباسقة وهي بذرة ، والإعصار وهو مجرد نسمة (1) .

اضف الى ذلك ان التجربة التي تتيحها مواكبة تلك الحضارة المتعاقبة ، والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوارتها لها أثر كبير في الإعداد الفكري وتعمير الخبرة القيادية في اليوم الموعود ؛ لأنها تضع الشخص المدّخر امام ممارسات كثيرة للآخرين بكل ما فيها من نقاط الضعف والقوة ، ومن ألوان الخطأ والصواب ، وتعطي لهذا الشخص قدرة اكبر على تقييم الظواهر الاجتماعية بالوعي الكامل على أسبابها ، وكل ملابساتها التاريخية .

ثمّ إنّ عملية التغيير المدّخرة للقائد المنتظر تقوم عى أساس رسالة معينة هي رسالة الاسلام ، ومن الطبيعي ان تتطلّب العملية في هذه الحالة قائداً قريباً من مصادر الاسلام الاولى ، قد بنيت شخصيته بناءً كاملاً بصورة مستقلة ومنفصلة عن مؤثرات الحضارة التي يقدر اليوم الموعود أن يحاربها .

وخلافاً لذلك ، الشخص الذي يولد وينشأ في كنف هذه الحضارة وتتفتح افكاره ومشاعره في إطارها ، فإنّه لا يتخلص غالباً من رواسب تلك الحضارة ومرتكزاتها ، وإن قاد حملة تغييرية ضدّها .

فلكي يضمن عدم تأثر القائد المدّخر بالحضارة التي اُعدّ لإستبدالها ، لابدّ أن تكون شخصية قد بنيت بناءاً كاملاً حضارية سابقة هي أقرب ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) وكلّ ذلك له مدخلية في تربية وإعداده الاعداد الخاص ، بما في ذلك من امتلاكه النظرة الشمولية العميقة ، فضلاً عن شهوده بنفسه ضآلة أولئك المتعملقين الذين يملؤون الدنيا ضجيجاً وصخباً ، ويسترهبون الناس ، وهذا الشهود يؤهله أكثر فأكثر لأداء مهمته الكونية في التغيير ، أي ملئه للأرض عدلاً بعد ما ملئت ظلماً ، هذه بغمض النظر الى مؤهلاته الذاتية ، والعناية الربانية الخاصة .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:89

تكون في الروح العامة ومن ناحية المبدأ إلى الحالة الحضارية التي يتجه اليوم الموعود الى تحقيقها بقيادته (1) .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ولا ينبغي ان يُشكل أحد بإنّ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع عالمية رسالته ومهمته التغييرة الكبرى إلا أنه عاش في كنف الحضارة الجاهلية ، ولم يتأثر بها ، وكذا الانبياء السابقون ، فما هو الوجه في هذا الرأي ؟

فجوابه :

أ ـ إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أخضع فعلاً إلى حالة عزالة تامة عن الحضارة الجاهلية ، وأنه كما ورد في السيرة النبويّة قد حُبّبَ إليه الخلاء ، وكان يذهب إلى غار حراء يتحنث فيه وكذا الأنبياء كانوا يتنزّهون عما عليه مجتمعهم ، وكانوا يعتزلون ، واليه الاشارة في قوله تعالى : (فُلُمّا اعتَزَلَهُم ومَا يَعبُدُون مِن دون الله وَهَبنا لَهُ إسْحَاقَ) مريم : 49 .

ب ـ إنّ النبي المرسل يوحى اليه ، ويسدّد مباشرة من السماء ، ويبلّغ بالأعمال والخطوات التي يتخذها خطوةً خطوةً ، والإمام عليه السلام لا يوحى اليه ـ كما هو عقيدة الامامية ـ ولا يبلّغ بالأمور مباشرةً من السماء ، نعم يكون مسدّداً وتحت العناية الربانية ، ولذلك فهو يحتاج إلى اعداد خاص . ففي نفس الوقت الذي يكون فيه قريباً ومتصلاً بالحضارة الإسلامية ، مستمداً من آبائه عليهم السلام الأصالة والمعرفة والعلم ، يكون مطلّلعاً على التجارب البشرية والحضارات في صعودها وعوامل تكوّنها وقوتها ، وكذلك إخفاقاتها وعوامل ضعفها وانهيارها ، فيستمد الخبرة والقدرة والإحاطة بالأمور جميعاً ، هذا مع اعتقادنا بقدرات الامام العلمية الذاتية التي وهبها الله تعالى له ، وبكونه مسدداً من السماء كما سيتوضح في المبحث الرابع .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:90

--------------------------------------------------------------------------------

ص:91

(المبحث الرابع)

كيف اكتمل

إعداد القائد المنتظر ؟

--------------------------------------------------------------------------------

ص:92

--------------------------------------------------------------------------------

ص:93

ونأتي الآن على السؤال الثالث القائل : كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر مع أنه لم يعاصر أباه الإمام العسكري إلاّ خمس سنوات تقريباً ؟ وهي فترة الطفولة التي لا تكفي لإنضاج شخصية القائد ، فما هي الظروف التي تكامل من خلالها ؟

والجواب : إنّ المهدي عليه السلام خَلَفَ أباه في إمامة المسلمين ، وهذا يعني أنه كان إماماً بكلّ ما في الإمامة من محتوىً فكري وروحي في وقت مبكر جداً من حياته الشريفة .

والإمامة المبكرة ظاهرة سَبقه إليها عددٌ من آبائه عليهم السلام ، فالإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام تولّى الإمامة وهو في الثامنة من عمره (1) ، والإمام علي بن محمد الهادي تولّى الإمامة وهو في التاسعة (2) من عمره ، والإمام أبو محمد الحسن العسكري (3) والد القائد المنتظر تولّى الامامة وهو في الثانية والعشرين من عمره ،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) : الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي المكي (ت 855 هـ) . وراجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص 316 وما بعدها .

(2) و (3) : التتمة في تواريخ الأئمة | السيد تاج الدين العاملي من أعلام القرن الحادي عشر الهجري ، نشر مؤسسة البعثة ـ قم . وراجع : الصواعق المحرقة لابن حجر : ص 123 ـ 124 ، وإذ ذكر طرفاً من سيرة الإمام وكراماته .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:94

ويلاحظ أنّ ظاهرة الإمامة المبكرة بلغت ذروتها في الإمام المهدي والإمام الجواد ، ونحن نسميها ظاهرة لأنها كانت بالنسبة إلى عدد من آباء المهدي عليه السلام تشكل مدلولاً حسيّاً علمياً عاشه المسلمون ، ووعوه في تجربتهم مع الامام بشكل وآخر ، ولا يمكن ان نطالب بإثباتٍ لظاهرة من الظواهر أوضح وأقوى من تجربة أمّة (1) .

ونوضح ذلك ضمن النقاط التالية :

أ ـ لم تكن إمامة الإمام من أهل البيت مركزاً من مراكز السلطان والنفوذ التي تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن ، ويدعمها النظام الحاكم كإمامة الخلفاء الفاطميين ، وخلافة الخلفاء العباسيين ، وانما كانت تكتسب ولاء قواعدها الشعبية الواسعة عن طريق التغلغل الروحي ، والإقناع الفكري لتلك القواعد بجدارة هذه الإمامة لزعامة الإسلام ، وقيادته على أسس روحية وفكرية .

ب ـ إنّ هذه القواعد الشعبية بنيت منذ صدر الاسلام ، وازدهرت واتسعت على عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ، وأصبحت المدرسة التي رعاها هذان الإمامان في داخل هذه القواعد تشكل تياراً فكرياً واسعاً في العالم الاسلامي ، يضم المئات من الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والعلماء في مختلف ضروب المعرفة الإسلامية والبشرية المعروفة وقتئذٍ ، حتى قال الحسن بن علي الوشا : إني دخلت مسجد الكوفة فرأيت فيه تسعمائة شيخ (2) كلهم يقولون حدثنا جعفر بن محمد .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص 319 وما بعدها .

الصواعق المحرقة : ص 123 ـ 124 .

فقد أوردا قصة المحاورة التي دارت بين الإمام الجواد عليه السلام وبين يحيى بن أكثم زمن المأمون ، وكيف استطاع الإمام عليه السلام أن يثبت أعلميته وقدرته على إفحام الخصم وهو في تلك السن المبكرة .

(2) راجع : المجالس السنية | السيد الأمين العاملي 5 : 209 ، وهذه قضية مهشورة تناقلها الخاص

--------------------------------------------------------------------------------

ص:95

ج ـ إنّ الشروط التي كانت هذه المدرسة وما تمثله من قواعد شعبية في المجتمع الإسلامي ، تؤمن بها وتتقيد بموجبها في تعيين الإمام والتعرف على كفاءته للإمامة ، شروط شديدة ؛ لأنها تؤمن بأنّ الإمام لا يكون إماماً إلاّ اذا كان أعلم علماء عصره (1) .

د ـ إنّ المدرسة وقواعدها الشعبية كانت تقدم تضحيات كبيرة في سبيل الصمود على عقيدتها في الإمامة ؛ لأنها كانت في نظر الخلافة المعاصرة لها تشكل خطا عدائياً ، ولو من الناحية الفكرية على الأقل ، الأمر الذي أدّى إلى قيام السلطات وقتئذٍ وباستمرار تقريباً حملات من التصفية والتعذيب ، فقتل من قتل ، وسجن من سجن ، ومات في ظلمات المعتقلات المئات . وهذا يعني أنّ الاعتقاد بإمامة أئمة أهل البيت كان يكلّفهم غالياً (2) ، ولم يكن له من الإغراءات سوى ما يحسّ به المعتق أو يفترضه من التقرب إلى الله تعالى والزلفى عنده .

هـ ـ إنّ الأئمة الذين دانت هذه القواعد لهم بالإمامة لم يكونوا معزولين عنها ،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

والعام . وراجع : صحاح الأخباري | محمد سراج الدين الرفاعي : ص 44 ، نقلاً عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة | أسد حيدر 1 : 56 . وقال ابن حجر في الصواعق المحرقة ص 120 : «جعفر الصادق ، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في جميع البلدان ، وروي عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السختياني ... » .

(1) كون الإمام أعلم أهل زمانه أمرٌ متسالم عليه عند الإمامية . راجع : الباب الحادي عشر | العلامة الحلي ، هذا وقد عرّضوا لأكثر من اختبار صلوات اله وسلامه عليهم لإثبات هذا المدّعى ، ونحجوا فيه .

راجع : الصواعق المحرقة لابن حجر : ص 123 ، فقد نقل تفصيلاً في هذه المسألة عن مسائل يحيى بن أكثم للإمام الجواد عليه السلام .

(2) إنّ الاعتقاد بإمامة الائمة كلّف أتباعهم غالياً ، وهذا ثابت تاريخياً ، وليس الى إنكاره من سبيل ، والشاهد يدل على الغائب أيضاً . راجع : مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:96

ولا متقوقعين في بروج عالية الشأن السلاطين مع شعوبهم ،ولم يكونوا يحتجبون عنهم إلاّ أن تحجبهم السلطة الحاكمة بسجن او نفي ، وهذا ما نعرفه من خلال العدد الكبير من الرواة والمحدثين عن كلّ واحد من الائمة الاحد عشر ، ومن خلال ما نقل من المكاتبات التي كانت تحصل بين الإمام ومعاصريه ، وما كان الإمام يقوم به من أسفار من ناحية ، وما كان يبثّه من وكلاء في مختلف انحاء العالم الاسلامي من ناحية اخرى ، وما كان قد اعتاده الشيعة من تفقّد أئمتهم وزيارتهم في المدينة المنورة عندما يؤمون الديار المقدّسة من كلّ مكان لأداء فريضة الحج (1) ، كلّ ذلك يفرض تفاعلاً مستمراً بدرجة واضحة بين الامام وقواعده الممتدة في أرجاء العالم الإسلامي بمختلف طبقاتها من العلماء وغيرهم .

و ـ إنّ الخلافة المعاصرة للأئمّة عليهم السلام كانت تنظر إليهم وإلى زعامتهم الروحية والإمامية بوصفها مصدر خطر كبير على كيانها ومقدّراتها ، وعلى هذا الأساس بذلت كلّ جهودها في سبيل تفتيت هذه الزعامة ، وتحملت في سبيل ذلك كثيراً من السلبيات ، وظهرت أحياناً بمظاهر القسوة والطغيان حينما اضطرها تأمين مواقعها إلى ذلك ، وكانت حملات الاعتقال والمطاردة مستمرة للأئمة (2) أنفسهم على الرغم مما يخلّفه ذلك من شعور بالألم أو الاشمئزاز عند المسلمين وللناس الموالين على اختلاف درجاتهم .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) وقد أوصى الأئمة بذلك أتباعهم كما هو لسان الروايات الكثيرة .

راجع : أصول الكافي 1 : 322 | كتاب الحجة ـ باب 2 «إنّ الواجب على الناس بعدما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم ، ويعلمونه ولا يتهم ومودتهم له» .

(2) راجع في تاريخ الائمة عليهم السلام ، وتعرّضهم للأضطهاد والمطاردة والسجن والقتل أحياناً :

أ ـ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي .

ب ـ مقاتل الطالبين لابي الفرج الأصفهاني .

جـ ـ الإرشاد للشيخ المفيد .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:97

إذا أخذنا هذه النقاط الست بعين الاعتبار ، وهي حقائق تاريخية لا تقبل الشك ، أمكن ان نخرج بنتيجة وهي : انّ ظاهرة الامامة المبكرة كانت ظاهرة واقعية ولم تكن وهماً من الأوهام ؛ لأنّ الإمام الذي يبرز على المسرح وهو صغير فيعلن عن نفسه إماماً روحياً وفكرياً للمسلمين ، ويدين له بالولاء والإمامة كلّ ذلك التيار الواسع ، لابدّ أن يكون على قدر واضح وملحوظ بل وكبير من العلم والمعرفة وسعة الأفق والتمكن من الفقه والتفسير والعقائد ؛ لأنه لو لم يكن كذلك لما أمكن ان تقتنع تلك القواعد الشعبية بإمامته ، مع ما تقدم من أنّ الأئمة كانوا في مواقع تتيح لقواعدهم التفاعل معهم وللأضواء المختلفة أن تسلّط على حياتهم وموازين شخصيتهم . فهل ترى أنّ صبياً يدعو إلى إمامة نفسه وينصب منها علماً للإسلام وهو على مرأىً ومسمع من جماهير قواعده الشعبية ، فتؤمن به وتبذل في سبيل ذلك الغالي من أمنها وحياتها بدون ان تكلّف نفسها اكتشاف حاله ، وبدون ان تهزّها ظاهرة هذه الإمامة المبكرة لاستطلاع حقيقة الموقف وتقييم هذا الصبي الإمام ؟ (1) وَهَب أنّ الناس لم يتحركوا لاستطلاع المواقف ، فهل يمكن أن تمرّ المسألة أياماً وشهوراً بل أعواماً دون ان تتكشف الحقيقة على الرغم من التفاعل الطبيعي المستمر بين الصبي الإمام وسائر الناس ؟ وهل من المعقول ان يكون صبياً في فكره وعلمه حقاً ثمّ لا يبدو ذلك من خلال هذا التفاعل الطويل ؟

وإذا افترضنا أنّ القواعد الشعبية لإمامة أهل البيت لم يتح لها ان تكتشف واقع الامر ، فلماذا سكتت الخلافة القائمة ولم تعمل لكشف الحقيقة اذا كانت في صالحها ؟ وما كان ايسر ذلك على السلطة القائة لو كان الإمام الصبي صبياً في فكره وثقافته كما هو المعهود في الصبيان ، وما كان أنجحه من اسلوب أن تقدم هذا الصبي إلى شيعته وغير شيعته على حقيقته ، وتبرهن على عدم فكاءته للإمامة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة الى الامام المهدي عليه السلام ، ومن قبل إلى الإمام الجواد مثلاً .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:98

والزعامة الروحية والفكرية . فلئن كان من الصعب الإقناع بعدم كفاءة شخص في الأربعين أو الخمسين قد أحاط بقدرٍ كبير من ثقافة عصره لتسلّم الإمامة ، فليس هناك صعوبة في الإقناع بعدم كفاءة صبي أعتيادي مهما كان ذكياً وفطناً للإمام بمعناها الذي يعرفه الشيعة الاماميون (1) ، وكان هذا أسهل وأيسر من الطرق المعقدة وأساليب القمع والمجازفة التي انتهجتها السلطات وقتئذٍ .

إنّ التفسير الوحيد لسكوت الخلافة المعاصرة عن اللعب بهذه الورقة (2) ، هو أنها أدركت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة حقيقية وليست شيئاً مصطنعاً .

والحقيقة أنها أدركت ذلك بالفعل بعد أن حاولت ان تلعب بتلك الورقة فلم تستطع ، والتأريخ يحدثنا عن محاولات من هذا القبيل وفشلها (3) ، بينما لم يحدثنا إطلاقاً عن موقف تزعزعت فيه ظاهرة الإمامة المبكرة أو واجه فيه الصبّي الإمام إحراجاً يفوق قدرته أو يزعزع ثقة الناس فيه .

وهذا معنى ما قلناه من أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية في حياة أهل البيت وليست مجرد افتراض ، كما أنّ هذه الظاهرة الواقعية لها جذورها وحالاتها المماثلة في تراث السماء الذي امتد عِبرَ الرسالات والزعامات الربانية .

ويكفي مثالاً لظاهرة الإمامة المبكرة في التراث الرباني لأهل البيت عليهم السلام

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أي على انه يجب ان يكون افضل الناس ، وأعلم الناس كما هو معتقد الإمامة الاثني عشرية .

راجع : حق اليقين في معرفة أصول الدين للسيد عبد الله شبر (ت | 1242 هـ) 1 : 141 ، المقصد الثالث .

(2) يقصد تقديم الإمام الصبي للأختبار أمام الملأ لإظهار حقيقة الأمر .

(3) قد فعل المأمون ذلك ، وانكشف لدى الخاص من العلماء مدى ما يمتلكه الإمام الجواد عليه السلام من الفقه والعلم . راجع : الصواعق المحرقة لابن حجر : ص 123 .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:99

يحيى عليه السلام إذ قال الله سبحانه وتعالى : (يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوّةِ وَآتَينَاهُ الحُكمَ صَبِيّاً) سورة مريم : 12 .

ومتى ثبت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية ومتواجدة فعلاً في حياة أهل البيت لم يعد هناك اعتراض فيما يخصّ إمامة المهدي عليه السلام لأبيه وهو صغير (1) .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) وقد شاهد خاصة الشيعة الإمام المهدي واتصلوا به ، واخذوا عنه ، كما حصل عن طريق السفراء الاربعة . راجع : تبصرة الولي فيمن رأى القائم المهدي | البحراني ، الإرشاد | الشيخ المفيد : ص 345 ، وراجع تفصيلاً وافياً في دفاع عن الكافي | السيد ثامر العميدي 1 : 535 وما بعدها.

(المبحث الخامس)

كيف نؤمن

بأن المهدي قد وجد

--------------------------------------------------------------------------------

ص:102

--------------------------------------------------------------------------------

ص:103

ونصل الآن إلى السؤال الرابع وهو يقول : هب أنّ فرضية القائد المنتظر ممكنة بكلّ ما تستبطنه من عمر طويل ، وإمامة مبكرة ، وغيبة صامتة ، فإنّ الإمكان لا يكفي للاقتناع بوجوده فعلاً .

فكيف نؤمن فعلاً بوجود المهدي ؟ وهل تكفي بضع روايات تنقل في بطون الكتب عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للاقتناع الكامل بالامام الثاني عشر على الرغم مما في هذا الافتراض من غرابة وخروج عن المالوف ؟ بل كيف يمكن أن نثبت أنّ للمهدي وجوداً تاريخياً حقّاً وليس مجرد افتراض توفرت ظروف نفسية لتثبيته في نفوس عدد كبير من الناس ؟ (1)

والجواب : إنّ فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغير العالم إلى الأفضل قد جاءت في أحاديث الرسول الاعظم عموماً ، وفي روايات أئمة أهل البيت

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هذه التساؤلات يطرحها السيد الشهيد رضي الله عنه بصفتها من الإشكالات التي أثيرت وتثار عادةً حول المهدي عليه السلام ، وهي أقصى ما يثار في هذا الصدد ، حتّى إنّ بعض الكتّاب المعاصرين قد أثاروها أخيراً مدفوعين بدوافع غير علمية ، مصحوبة تلك الإثارة بضجيج مكثفٍ ، ومحاولات بائسة من الوهابية لترويجها وتبنيها ، ولا تخفى الدوافع بعد ذلك على أحد . وقد أجاب الإمام الشهيد بجواب علمي لمن يريد الحقيقة . راجع ما كتبناه في المقدمة أيضاً .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:104

خصوصاً ، وأكدت في نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك . وقد أحصي أربعمائة حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طرق إخواننا أهل السنّة (1) ، كما أُحصي مجموع الأخار الواردة في الإمام المهدي من طرق الشيعة والسنّة فكان أكثر من ستة آلاف رواية (2) ، وهذا رقم إحصائي كبير لا يتوفر نظيره في كثير من قضايا الإسلام البديهية التي لا يشك فيها مسلم عادة .

وأما تجسيد هذه الفكرة في الإمام الثاني عشر عليه الصلاة والسلام فهذا ما توجد مبررات كافية وواضحة للاقتناع به .

ويمكن تلخيص هذه المبررات في دليلين :

أحدهما إسلامي .

والآخر علمي .

فبالدليل الإسلامي نثبت وجود القائم المنتظر .

وبالدليل العلمي نبرهن على أنّ المهدي ليس مجرد أسطورة وافتراض ، بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية .

أما الدليل الاسلامي :

فيتمثل في مئات الروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (3) والائمة من أهل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) يلاحظ كتاب (المهدي) للسيد «العم» الصدر قدس الله روحه الزكية . (الشهيد الصدر)

راجع : ما أثبته الشيخ العباد في مجلة الجامعة الاسلامية | العدد 3 سنة 1969 .

وراجع : المهدي الموعود المنتظر | الشيخ نجم الدين العسكري .

(2) يلاحظ كتاب منتخب الأثر في الامام الثاني عشر للشيخ لطف الله الصافي . (الشهيد الصدر)

(3) راجع : معجم أحاديث الإمام المهدي | مؤسسة المعارف الاسلامية | الجزء الأول ـ أحاديث النبي .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:105

البيت عليهم السلام والتي تدلّ على تعيين المهدي وكونه من أهل البيت (1) ..

ومن ولد فاطمة (2) ..

ومن ذرية الحسين (3) ..

وأنه التاسع من ولد الحسين (4) ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أخرج أحمد وابن ابي شيبة وابن ماجة ونعيم بن حماد في الفتن عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «المهدي منّا أهل البيت يصلحه الله في ليلة» .

راجع : الحاوي للفتاوي | السيوطي 2 : 213 و 215 وفيه ، أيضاً : اخرج أحمد وابن أبي شيبة وأبو داود ، عن علي ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «لو لم يبق من الدهر إلاّ يومُ لبعث الله رجلاً من أل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» ، وراجع : صحيح سنن المصطفى 2 : 207 ، وسننن ابن ماجة 2 : 1367 | 4085 .

وراجع : معجم أحاديث المهدي 1 : 147 وما بعدها إذ ينقل أحاديث كثيرة عن الصحاح والمسانيد في هذا المعنى . وراجع : موسوعة الإمام المهدي | ترتيب مهدى فقيه إيماني ، الجزء اأول ، وفيها نقول مصورة عن عشرات الكتب لعلماء السنّة ومحدّثيهم في المهدي وصفاته ما يتعلق به وفيها نسخة مصورة الشيخ العباد حول ما جاء من الاحاديث والآثار في المهدي عليه السلام .

(2) الحاوي للفتاوي | السيوطي جلال الدين 2 : 214 ، قال : وأخرج ابو داود وابن ماجة والطبراني والحاكم عن أمّ سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «المهدي من عترتي من ولد فاطمة» . راجع صحيح سنن المصطفى لأبي داود 2 : 208 .

(3) حديث المهدي من ذرية الحسين عليه السلام كما في المصادر الآتية على ما نقل في معجم أحاديث المهدي وهي : الأربعون حديثاً لأبي نعيم الأصفهاني كما في عقد الدرر للمقدسي الشافعي ، وأخرجه الطبراني في الأوسط على ما في المنار المنيف لابن القيم ، وفي السيرة الحلبية 1 : 193 ، وفي القول المختصر لابن حجر . راجع منتخب الأثر للشيخ لطف الله الصافي في ما نقله من كتب الشيعة . وراجع توهين الرواية التي تقول بأنه من ولد الحسن عليه السلام كتاب السيد العميدي (دفاع عن الكافي 1 : 296) .

(4) راجع الرواية التي تنص على أنّه التاسع من ولد الحسين عليه السلام في : ينابيع المودة لقندوزي

--------------------------------------------------------------------------------

ص:106

وانّ الخلفاء اثنا عشر (1) . فإنّ هذه الروايات تحدد تلك الفكرة العامة وتشخيصها في الإمام الثاني عشر من أئمة اهل البيت ، وهي روايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار على الرغم من تحفّظ الأئمة عليهم السلام واحتياطهم في طرح ذلك على المستوى العام ، وقايةً للخلف الصالح من الاغتيال أو الإجهاز السريع على حياته (2) . وليست الكثرة العددية للروايات هي الأساس الوحيد لقبولها ، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها ، فالحديث النبوي الشريف عن الائمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده وأنهم اثنا عشر إماماً أو خليفةً أو أميراً ـ على اختلاف متن الحديث في طرقه المختلفة ـ قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكثر من مائتين وسبعين رواية (3) مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنّة بما في ذلك البخاري (4) ومسلم (5) والترمذي (6) وأبي داود (7)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحنفي : ص 492 ، وفي مقتل الإمام الحسين للخوارزمي 1 : 196 ، وفي فرائد السمطين للجويني الشافعي 2 : 310 ـ 315 الأحاديث من 561 ـ 569 ، وراجع منتخب الأثر للعلامة الشيخ الصافي إذ خرّجها من طرق الفريقين (دفاع عن الكافي 1 : 294) .

(1) حديث «الخلفاء بعدي اثنا عشر كلهم من قريش» أو «لا يزال هذا الدين قائماً ما وليه اثنا عشر كلهم من قريش» .

هذا الحديث متواتر ، روته الصحاح والمسانيد بطرق متعددة وإن اختلف في متنه قليلاً . نعم ، اختلفوا في تأويله واضطربوا . راجع : صحيح البخاري 9 : 101 كتاب الأحكام ـ باب الاستخلاف . صحيح مسلم 2 : 119 كتاب الإمارة . مسند أحمد 5 : 90 ، 93 ، 97 .

(2) راجع الغيبة الكبرى | السيد محمد الصدر : ص 272 وما بعدها .

(3) راجع التاج الجامع للأصول 3 : 40 قال : رواه الشيخان الترمذي ، وراجع في تحقيق الحديث وطرقه وأسانيده كتاب الإمام المهدي عليه السلام | علي محمد علي دخيل .

(4) صحيح البخاري | المجلد الثالث | 9 : 101 ، كتاب الأحكام ـ باب الاستخلاف . طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

(5) و (6) و (7) راجع : التاج الجامع لأصول 3 : 40 ، قال تعقيباً على الحديث : رواه الشيخان

--------------------------------------------------------------------------------

ص:107

ومسند أحمد (1) ومستدرك الحاكم على الصحيحين (2) ، ويلاحظ هنا أنّ البخاري الذي نقل هذا الحديث كان معاصراً للإمام الجواد والإمامين الهادي والعسكري ، وفي ذلك مغزىً كبير ؛ لأنه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سجّل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يتحقق مضمونه وتكتمل فكرة الأئمة الاثني عشر فعلاً ، وهذا يعني أنه لا يوجد أي مجال للشك في أن يكون نقل الحديث متأثراً بالواقع الإمامي الاثني عشري وانعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنياً لا تسبق في ظهورها وتسجيلها في كتب الحديث ذلك الواقع الذي تشكل انعكاساً له ، فما دمنا قد ملكنا الدليل المادي على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخي للأئمة الاثني عشر ، وضبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامي الاثني عشري ، أمكننا ان نتأكد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاساً لواع وإنما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن هوى (3) ، فقال : «إنّ الخلفاء بعدي اثنا عشر» (4) . وجاء الواقع الإمامي الاثني عشري ابتداءً من الإمام عليٍّ وانتهاءً بالمهدي ؛ ليكون التطبيق الوحيد المعقول (5) لذلك الحديث النبوي الشريف .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

والترمذي ، وفي الهامش قال : رواه أبو داود في كتاب المهدي بلف : «لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة ...» ، وراجع سنن أبي داود 2 : 207 .

(1) مسند الإمام أحمد 5 : 93 ، 100 .

(2) المستدرك على الصحيحين 3 : 618 .

(3) إشارة إلى قوله تعالى : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى \* إن هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحَى) النجم : 3 ـ 4 .

(4) تقدم تخريج الحديث .

(5) اضطرب العلماء في تأويله بعد إطباقهم على صحته ، وما أوردوه من مصاديق لا يمكن قبولها ، بل إنّ بعضها غير معقول تماماً كإدخالهم يزيد بن معاوية المجاهر بالفسق ، المحكوم بالمروق والكفر أو من هو على شاكلته . راجع ما نقله السيد ثامر العميدي من أقوالهم وقد ناقش هذه القضية مناقشة وافية وعلمية ، وأبطل تأويلاتهم بما لا مزيد عليه في دفاع عن الكافي 1 : 540 وما بعدها .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:108

وأما الدليل العلمي :

هو يتكون من تجربة عاشتها أمّة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريباً وهي فترة الغيبة الصغرى . لتوضيح ذلك نمهد بإعطاء فكرة موجزة عن الغيبة الصغرى (1) .

إنّ الغيبة الصغرى تُعبّر عن المرحلة الأولى من إمامة القائد المنتظر عليه الصلاة والسلام فقد قُدّر لهذا الإمام منذ تسلّمه للإمامة ان يستتر عن المسرح العام ويظلُّ بعيداً باسمه عن الأحداث وإن كان قريباً منها بقلبه وعقله ، وقد لوحظ أنّ هذه الغيبة إذا جاءت مفاجئة حققت صدمة كبيرة للقواعد الشعبية للإمامة في الأمة الاسلامية ؛ لأنّ هذه القواعد كانت معتادة على الاتصال بالإمام في كلّ عصر ، والتفاعل معه والرجوع إليه في حلّ المشاكل المتنوعة ، فإذا غاب الإمام عن شيعته فجأة وشعروا بالانقطاع عن قيادتهم الروحية الفكرية ، سبّبت هذه الغيبة (2) المفاجئة الإحساس بفراغٍ دفعي هائل قد يعصف بالكيان كله ويشتت شمله ، فكان لابدّ من تمهيد لهذه الغيبة ؛ لكي تألفها هذه القواعد بالتدريج ، وتكيّف نفسها شيئاً فشيئاً على أساسها ، وكان هذا التمهيد هو الغيبة الصغرى التي اختفى فيها الإمام المهدي عن المسرح العام ، غير أنه كان دائم الصلة بقواعده وشيعته عن طرق وكلائه ونوابه والثقات من أصحابه الذين يشكلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطه الإمامي (3) . وقد شغل مركز النيابة عن الإمام في هذه الفترة أربعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : الغيبة الصغرى | السيد محمد الصدر ، فقد توسّع في بحثها .

(2) إشارة الى الغيبة الكبرى .

(3) راجع : تبصرة الولي فيمن رأى القائم المهدي | السيد هاشم البحراني . دفاع عن الكافي | السيد ثامر العميدي 1 : 568 وما بعدها .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:109

ممن أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التي عاشوا ضمنها وهم كما يلي :

1 ـ عثمان بن سعيد العمري .

2 ـ محمد بن عثمان بن سعيد العمري .

3 ـ أبو القاسم الحسين بن روح .

4 ـ أبو الحسن علي بن محمد السمري .

وقد مارس هؤلاء الأربعة (1) مهام النيابة بالترتيب المذكور ، وكلما مات أحدهم خلفه الآخر الذي يليه بتعيين من الإمام المهدي عليه السلام .

وكان النائب يتصل بالشيعة ويحمل أسئلتهم إلى الإمام ، ويعرض مشاكلهم عليه ، ويحمل إليهم أجوبته شفهية أحياناً وتحريرية (2) في كثير من الأحيان ، وقد وجدت الجماهير التي فقدت رؤية إمامها العزاء والسلوة في هذه المراسلات والاتصالات غير المباشرة . ولاحظت أنّ كلّ التوقيعات والرسائل كانت ترد من الإمام المهدي عليه السلام بخط واحد وسليقة واحدة (3) طيلة نيابة النواب الأربعة التي استمرت حوالي سبعين عاماً ، وكان السمري هو آخر النواب ، فقد أعلن عن انتهاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع ترجمة هؤلاء الأربعة في كتاب الغيبة الصغرى للسيد محمد الصدر ، الفصل الثالث : ص 395 وما بعدها ، نشر دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت 1980 .

(2) وهذه تعرف بالتوقيعات ، وهي الأجوبة التحريرية والشفوية التي نقلت عن الإمام المهدي عليه السلام . راجع : الاحتجاج | الطبرسي 2 : 523 وما بعدها .

(3) مما استقر في الأوساط الأدبية وعند نقاد الأدب قديماً وحديثاً أنّ الأسلوب هو الرجل ، وهذه المقولة صحيحة . ومن هنا رأينا وسمعنا أنّ كثيراً من الادباء وقارئي الأدب يميزون بمجرد قراءة النص شعرياً كان نثرياً أنه لفلان أو لفلان ، وما ذلك إلاّ لأنّ الأسلوب هو الرجل ، وأنّ لكلّ كاتبٍ سمةً وطابعاً خاصاً في كتابته يمكن تمييزه من غيره ، هذا فضلاً على تميّز خطّه الشريف من غيره من الخطوط .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:110

مرحلة الغيبة الصغرى التي تتميز بنُواب معينين ، وابتداء الغيبة الكبرى التي لا يوجد فيها أشخاص معينون بالذات لوساطة بين الإمام القائد والشيعة ، وقد عبّر التحول من الغيبة الصغرى الى الغيبة الكبرى عن تحقيق الغيبة الصغرى لأهدافا وانتهاء مهمتها ؛ لأنها حصّنت الشيعة بهذه العملية التدريجية عن الصدمة والشعور بالفراغ الهائل بسبب غيبة الإمام ، واستطاعت ان تكيّف وضع الشيعة على أساس الغيبة ، وتعدّهم بالتدريج لتقبل فكرة النيابة العامة عن الإمام ، وبهذا تحولت النيابة من أفراد منصوصين (1) إلى خط عام (2) ، وهو خط المجتهد العادل البصير بأمور الدنيا والدين تبعاً لتحول الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى .

والآن بإمكانك أن تقدّر الموقف في ضوء ما تقدم ، لكي تدرك بوضوح أنّ المهدي حقيقة عاشتها أمة من الناس ، وعبّر عنها السفراء والنواب طيلة سبعين عاماً من خلال تعاملهم مع الآخرين ، ولم يلحظ عليهم أحدٌ كلّ هذه المدة تلاعباً في الكلام ، أو تحايلاً في التصرف ، أو تهافتاً في النقل . فهل تتصور ـ بربك ـ أنّ بإمكان أكذوبة ان تعيش سبعين عاماً ، ويمارسها أربعة على سبيل الترتيب كلهم يتفقون عليها ، ويظلون يتعاملون على أساسها وكأنها قضية يعيشونها بأنفسهم ويرونها بأعينهم دون ان يبدر منهم أي شيء يثير الشك ، ودون ان يكون بين الأربعة علاقة خاصة متميزة تتيح لهم نحواً من التواطئ ، ويكسبون من خلال ما يتصف به سلوكهم من واقعية ثقة الجميع ، وإيمانهم بواقعية القضية التي يدّعون أنهم يحسونها ويعيشون معها ؟!

لقد قيل قديماً : إنّ حبل الكذب قصير ، ومنطق الحياة يثبت أيضاً أنّ من

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة إلى النواب الأربعة المذكورين .

(2) وهو ما اصطلح عليه (بالمرجعية الدينية) ، ويلاحظ هنا الصفات التي يرى الإمام الشهيد لزوم توفرها في المرجعية .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:111

المستحيل عملياً بحساب الاحتمالات أن تعيش أكذوبة بهذا الشكل ، وكلّ هذه المدة ، وضمن كلّ تلك العلاقات والأخذ والعطاء ، ثمّ تكسب ثقة جميع من حولها .

وهكذا نعرف أنّ ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن ان تعتبر بمثابة تجربة علمية لإثبات ما لها من واقع موضوعي ، والتسليم بالإمام القائد بولادته (1) وحياته وغيبته ، وإعلانه العام عن الغيبة الكبرى التي استتر بموجبها عن المسرح ولم يكشف نفسه لأحد (2) .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إنّ اتصال الامام القائد المهدي بقواعد الشيعية عن طريق نوابه ووكلائه ، أو بأساليب أخرى متنوعة واقع تاريخي موضوعي ليس من سبيل إلى انكاره ، كما في السفارة ، فضلاً عن الدلائل الأخرى الكثيرة المستندة الى اخبار من يجب تصديقه ، ثم هو مقتضى الاحاديث المتواترة ، كحديث : «من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتةً جاهلية» وغير ذلك . إنّ كلّ ذلك مجموعاً ـ وهو محل اتفاق اكثر طوائف الملة الإسلامية ـ يدحض وبشكل قاطع ما يثيره المتشككون حول وجود الإمام واستمرار حياته المباركة الشريفة ، راجع : الغيبة الصغرى | السيد محمد الصدر : ص 566 . وراجع ما أثبتناه في المقدمة : ص 15 وما بعدها .

(2) ورد التوقيع الشريف عن الإمام القائد المهدي عليه السلام بعدم إمكان رؤيته بشكل صريح بعد وقوع الغيبة الكبرى ، وهذا محل اتفاق علماء الإمامية . وراجع مناقشة المسألة في : الغيبة الصغرى | السيد محمد الصدر : ص 639 وما بعدها .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:112

--------------------------------------------------------------------------------

ص:113

(المبحث السادس)

لماذا لم يظهر القائد إذن ؟

--------------------------------------------------------------------------------

ص:114

--------------------------------------------------------------------------------

ص:115

لماذا لم يظهر القائد إذن طيلة هذه المدة ؟ وإذا كان قد أعدّ نفسه للعمل الاجتماعي ، فما الذي منعه من الظهور على المسرح في فترة الغيبة الصغرى او في اعقابها بدلاً عن تحويلها إلى غيبة كبرى ، حيث كانت ظروف العمل الاجتماعي والتغييري وقتئذٍ أبسط وأيسر ، وكانت صلته الفعلية بالناس من خلال تنظيمات الغيبة الصغرى تتيح له أن يجمع صفوفه ويبدأ عمله بداية قوية ، ولم تكن القوى الحاكمة من حوله قد بلغت الدرجة الهائلة من القدرة والقوة التي بلغتها الإنسانية بعد ذلك من خلال التطور العلمي والصناعي ؟

والجواب : أنّ كلّ عملية تغيير اجتماعي يرتبط نجاحها بشروط وظروف موضوعية لا يتأتى لها أن تحقق هدفها إلاّ عندما تتوفر تلك الشروط والظروف .

وتتميز عمليات التغيير الاجتماعي التي تفجرها السماء على الأرض بأنها لا ترتبط في جانبها الرسالي بالظروف الموضوعية (1) ؛ لانّ الرسالة التي تعتمدها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) على الرغم من الأهمية التي يعطها الشهيد الصدر رضي الله عنه هنا للظروف الموضوعية ، ودور نضوجها أو إنضاجها في نجاح الثورات ـ وهذا فهم عميق لأثر العامل الاجتماعي والنفسي ـ إلاّ أنّ الشهيد الصدر رضي الله عنه يعرض نظرية جديدة في فهم عملية التغيير الاجتماعي الذي تحدثه السماء

--------------------------------------------------------------------------------

ص:116

عملية التغيير هنا ربانية ، ومن صنع السماء لا من صنع الظروف الموضوعية ، ولكنها في جانبها التنفيذي تعتمد الظروف الموضوعية ويرتبط نجاحها وتوقيتها بتلك الظروف . ومن أجل ذلك انتظرت السماء مرور خمسة قرون من الجاهلية حتى أنزلت آخر رسالاتها على يدّ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنّ الارتباط بالظروف الموضوعية للتنفيذ كان يفرض تأخرها على الرغم من حاجة العالم إليها منذ فترة طويلة قبل ذلك .

والظروف الموضوعية التي لها أثر في الجانب التنفيذي من عملية التغيير ، منها ما يشكّل المناخ المناسب والجوّ العام للتغيير المستهدف ، ومنها ما يشكّل بعض التفاصيل التي تتطلبها حركة التغيير من خلال منعطفاتها التفصيلية .

فبالنسبة إلى عملية التغيير التي قادها ـ مثلاً ـ لينين في روسيا بنجاح ، كانت ترتبط بعامل من قبيل قيام الحرب العالمية الأولى وتضعضع القيصرية ، وهذا ما يساهم في إيجاد المناخ المناسب لعملية التغيير ، وكانت ترتبط بعوامل أخرى جزئية ومحدودة من قبيل سلامة لينين مثلاً في سفره الذي تسلل فيه إلى داخل روسيا وقاد الثورة ، إذ لو كان قد اتفق له أي حادث يعيقه لكان من المحتمل أن تفقد الثورة بذلك قدرتها على الظهور السريع على المسرح .

وقد جرت سنة الله تعالى التي لا تجد لها تحويلاً في عمليات التغيير الرباني على التقيد من الناحية التنفيذية بالظروف الموضوعية التي تحقق المناخ المناسب والجو العام لإنجاح عملية التغيير ، ومن هنا لم يأت الاسلام إلاّ بعد فترة من الرسل وفراغ مرير استمر قروناً من الزمن .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من خلال الرسالات السماوية ، فهي في جانبها الرسالي ترتبط بقانونها الخاص ، ولكن في جانبها التنفيذي تعتمد الظروف الموضوعية وترتبط بها توقيتاً ونجاحاً ، وأعني بالظروف الموضوعية : الحالة السياسية والحالة الاجتماعية للأمة والواقع الدولي المعاصر ، ومدى قدرة الأمة في إمكاناتها الذاتية واستعدادها النفسي .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:117

فعلى الرغم من قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على تذليل كل العقبات والصعاب في وجه الرسالة الربانية وخلق المناخ المناسب لها خلقاً بالإعجاز ، لم يشأ أن يستعمل هذا الأسلوب ؛ لأنّ الامتحان والابتلاء والمعاناة التي من خلالها يتكامل الانسان يفرض على العمل التغييري الرباني ان يكون طبيعياً وموضوعياً من هذه الناحية ، وهذا لا يمنع من تدخل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أحياناً فيما يخصّ بعض التفاصيل التي لا تكوّن المناخ المناسب وإنما قد يتطلبها أحياناً التحرك ضمن ذلك المناخ المناسب ، ومن ذلك الإمدادات والعنايات الغيبية التي يمنحها الله تعالى لأوليائه في لحظات حرجة فيحمي بها الرسالة ، وإذا بنار نمرود تصبح برداً وسلاماً على إبراهم (1) ، وإذا بيد اليهودي الغادر التي ارتفعت بالسيف على رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم تُشلّ وتفقد قدرتها على الحركة (2) ، وإذا بعاصفة قوية تجتاح مخيمات الكفار والمشركين الذين احدقوا بالمدينة في يوم الخندق وتبعث في نفوسهم الرعب (3) ، إلاّ أنّ هذا كله لا يعدو التفاصيل وتقديم العون في لحظات حاسمة بعد أن كان الجو المناسب ، والمناخ الملائم لعملية التغيير على العموم قد تكوّن بالصورة الطبيعية ووفقاً للظروف الموضوعية .

وعلى هذا الضوء ندرس موقف الإمام المهدي عليه السلام لنجد انّ عملية التغيير التي أُعدّ لها ترتبط من الناحية التنفيذية كأي عملية تغيير اجتماعي أخرى بظروف موضوعية تُساهم في توفير المناخ الملائم لها ، ومن هنا كان من الطبيعي أن توقّت وفقاً لذلك . ومن المعلوم أنّ المهدي لم يكن قد أعدّ نفسه لعمل اجتماعي محدود ،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة إلى قوله تعالى : (قَالُوا حَرُِّقوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُم إِن كُنتُمْ فَعِليِنَ \* قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ \* وَأَرَادُوا بِهِ كَيداً فَجَعَلنَهُمُ الأَخسَرِينَ) الأنبياء : 68 ـ 70 .

(2) راجع الرواية في تفسير ابن كثير 2 : 33 ، وراجع : البحار | المجلسي 18 : 47 و 52 و 60 ، 75 باب معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(3) تاريخ الطبري 2 : 244 حوادث السنة الخامسة من الهجرة .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:118

ولا لعملية تغيير تقتصر على هذا الجزء من العالم أو ذاك ؛ لأنّ رسالته التي اُدّخر لها من قبل الله ـ سبحانه وتعالى ـ هي تغيير العالم تغييراً شاملاً ، وإخراج البشرية كل البشرية من ظلمات الجور إلى نور العدل (1) ، وعملية التغيير الكبرى هذه لا يكفي في ممارستها مجرد وصول الرسالة والقائد الصالح وإلاّ لتمت شروطها في عصر النبوة بالذات ، وإنما تتطلب مناخاً عالمياً مناسباً ، وجوّاً عاماً مساعداً ، ويحقق الظروف الموضوعية المطلوبة لعملية التغيير العالمية .

فمن الناحية البشرية يعتبر شعور إنسان الحضارة بالنفاد عاملاً أساسياً في خلق ذلك المناخ المناسب لتقبّل رسالة العدل اجديدة ، وهذا الشعور بالنفاد يتكون ويترسخ من خلال التجارب الحضارية المتنوعة التي يخرج منها إنسان الحضارة مثقلاً بسلبيات ما بنى ، مدركاً حاجته إلى العون ن متلفّتاً بفطرته إلى الغيب أو إلى المجهول .

ومن الناحية المادية يمكن أن تكون شروط الحياة المادية الحديثة أقدر من شروط الحياة القديمة في عصر كعصر الغيبة الصغرى على إنجاز الرسالة على صعيد العالم كله ، وذلك بما تحققه من تقريب المسافات ، والقدرة الكبيرة على التفاعل بين شعوب الأرض ، وتوفير الأدوات والوسائل التي يحتاجها جهاز مركزي لممارسة توعية لشعوب العالم وتثقيفها على أساس الرسالة الجديدة .

وأما ما أشير إليه في السؤال من تنامي القوى والأداة العسكرية التي واجهها القائد في اليوم الموعود كلّا أجّل ظهوره ، فهذا صحيح ، ولكن ماذا ينفح نمو الشكل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كما هو نصّ الحديث النبوي الشريف : «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يومٌ لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني أو من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» .

راجع : التاج الجامع للاصول | منصور علي ناصف 5 : 360 الهامش ، قال : رواه أبو داود والترمذي .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:119

المادي للقوة مع الهزيمة النفسية من الداخل ، وانهيار البناء الروحي للإنسان الذي يملك كلّ تلك القوى والأدوات ؟ وكم من مرّة في التاريخ انهار بناءٌ حضاري شامخ بأول لمسة غازية ؛ لأنه كان منهاراً قبل ذلك ، وفاقداً الثقة بوجوده والقناعة بكيانه والاطمئنان إلى واقعه (1) .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) لقد شاهدنا في بداية التسعينات المصداق لهذه المقولة التي أطلقها الشهيد الصدر رضي الله عنه استناداً إلى خبرته العميقة بالمجتمع البشري ، فقد انهار الاتحاد السوفيتي وهو أحد القطبين اللذين كانا يهيمنان على العالم انهياراً سريعاً جداً ، وبصورة أذهلت الجميع .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:120

--------------------------------------------------------------------------------

ص:121

(المبحث السابع)

وهل للفرد كلّ هذا الدور ؟!

--------------------------------------------------------------------------------

ص:122

--------------------------------------------------------------------------------

ص:123

ونأتي إلى سؤال آخر في تسلسل الأسئلة المتقدمة ، وهو السؤال الذي يقول : هل للفرد مهما كان عظيماً القدرة على إنجاز هذا الدور العظيم ؟ وهل الفرد العظيم إلاّ ذلك الإنسان الذي ترشحه الظروف ليكون واجهةً لها في تحقيق حركتها ؟

والفكرة في هذا السؤال ترتبط بوجهة نظر معينة للتاريخ تفسره على أساس أنّ الإنسان عامل ثانوي (1) فيه ، والقوى الموضوعية المحيطة به هي العامل الأساسي ، وفي إطار ذلك لن يكون الفرد في أفضل الأحوال إلاّ التعبير الذكي عن اتجاه هذا العامل الأساسي .

ونحن قد أوضحنا في مواضع أخر من كتبنا المطبوعة (2) أنّ التاريخ يحتوي على قطبين : أحدهما الإنسان ، والآخر القوى المادية المحيطة به . وكما تؤثر القوى المادية وظروف الإنتاج والطبيعية في الإنسان ، يؤثر الإنسان ايضاً فيما حوله من قوى وظروف ، ولا يوجد مبرر لافتراض العكس ، فالإنسان والمادة يتفاعلان

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة إلى نظرية المادية التاريخية ، أي إلى التفسير الماركسي للتاريخ ، راجع : اقتصادنا 1 : 19 ، وفيه تحليل علمي ومناقشة فلسفية عميقة بقلم الإمام الشهيد الصدر رضي الله عنه .

(2) إشارة الى كتاب (فلسفتنا) ، وإلى مقدمة كتاب (اقتصادنا) .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:124

على مرّ الزمن ، وفي هذا الإطار بإمكان الفرد أن يكون أكبر من ببغاء في تيار التاريخ ، وبخاصة حين ندخل في الحساب عامل الصلة بين هذا الفرد والسماء (1) . فإن هذه الصلة تدخل حنيئذٍ كقوة موجّهة لحركة التاريخ . وهذا ما تحقق في تاريخ النبوّات ، وفي تاريخ النبوّة الخاتمة بوجه خاص ، فإنّ النبيّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بحكم صلته الرسالية بالسماء تسلّم بنفسه زمام الحركة التاريخية ، وأنشأ مدّاً حضارياً لم يكن بإمكان الظروف الموضوعية التي كانت تحيط به أن تتمخض عنه بحال من الأحوال ، كما أوضحنا ذلك في المقدمة الثانية للفتاوى الواضحة (2) .

وما أمكن أن يقع على يد الرسول الاعظم يمكن ان يقع على يد القائد المنتظر من أهل بيته الذي بشّر (3) به ونوّه عن دوره العظيم .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع : كتاب الأبطال (البطل في صورة نبي) | توماس كارليل | ترجمة الدكتور السباعي ، سلسلة الألف كتاب ـ مصر .

(2) راجع المقدمة الثانية في الفتاوى الواضحة : ص 63 ، وفيها توضيح وتفصيل لهذه المسألة .

(3) التاج الجامع للأصول 5 : 343 ، عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «المَهْدِي منّي أَجلَى اَلجَبهَة أَقنى الأنفَ يَملأ الأرضَ قِسْطاً وَعَد كما مُلِئت ظلماً وجَوراً» .

(المبحث الثامن)

ما هي طريقة

التغيير في اليوم الموعود ؟

--------------------------------------------------------------------------------

ص:126

--------------------------------------------------------------------------------

ص:127

ونصل في النهاية إلى السؤال الأخير من الأسئلة التي عرضناها ، وهو السؤال عن الطريقة التي يمكن ان نتصور من خلالها ما سيتمّ على يد ذلك الفرد من انتصار حاسم للعدل ، وقضاء على كيانات الظلم المواجهة له .

والجواب المحدد عن هذا السؤال يرتبط بمعرفة الوقت والمرحلة التي يقدّر للإمام المهدي عليه السلام ان يظهر فيها على المسرح ، وإمكان افتراض ما تتميز به تلك المرحلة من خصائص وملابسات لكي ترسم في ضوء ذلك الصورة التي قد تتخذها عملية التغيير ، والمسار الذي قد تتحرك ضمنه ، وما دمنا نجهل المرحلة ولا نعرف شيئاً عن ملابساتها وظروفها فلا يمكن التنبؤ العلمي بما سيقع في اليوم الموعود ، وإن امكنت الافتراضات والتصورات التي تقوم في الغالب على أساس ذهني لا على أسس واقعية عينية .

وهناك افتراض أساسي واحد بالإمكان قبوله على ضوء الأحاديث التي تحدثت عنه (1) والتجارب التي لوحظت لعمليات التغيير الكبرى في التاريخ ، وهو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) إشارة إلى علامات الظهور أو الملابسات والاحداث والوقائع التي تسبق ظهوره المبارك أو ترافق ظهوره كما صوّرتها الروايات ووردت بها الآثار الصحيحة ، وقد بسطت تفصيلاً في

--------------------------------------------------------------------------------

ص:128

افتراض ظهور المهدي عليه السلام في أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة وأزمة حضارية خانقة (1) وذلك الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتدّ ، وهذه النكسة تهيّء الجو النفسي لقبولها ، وليست هذه النكسة مجرد محادثة تقع صدفة في تاريخ الحضارة الإنسانية ، وإنما هي نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي لا تجد لها في نهاية المطاف حلاًّ حاسماً فتشتعل النار التي لا تبقي ولا تذر ، ويبرز النور في تلك اللحظة ؛ ليطفئ النار ويقيم على الأرض عدل السماء .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين . وقد وقع الابتداء في كتابة هذه الوريقات في اليوم الثالث عشر من جمادى الثانية سنة 1397 هـ ، ووقع الفراغ منها عصر اليوم السابع عشر من الشهر نفسه .

والله ولي التوفيق . محمد باقر الصدر ـ النجف الأشرف

تمّ الفراغ من تحقيق هذا الكتاب في شهر رجب المرجب من سنة 1416 هـ وذلك في قم المقدسة . الدكتور عبد الجبار شرارة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عصر الظهور) للسيد محمد الصدر . وراجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص 365 وما بعدها وراجع أيضاً : الإشاعة لأشراط الساعة | محمد بن رسول الحسيني البرزنجي .

(1) وفيه إشارة إلى ما يمكن ان تنجرّ إليه الإنسانية من أزمة حضارية بسبب التنافسات والصراعات بين الحضارات المادية والكيانات السياسية ، وفشلها في تحقيق الأمن والاستقرار والسعاده للإنسان ، ولقد بدأت بوادر مثل هذا الفراغ تظهر وتتسع شيئاً فشيئاً في عصرنا الراهن في شرق الأرض وغربها ، وكلّ متنبع للأخبار والتقارير الصحفية والتحقيقات الخبرية يعرف ذلك جيداً . وما اليوم الموعود ببعيد .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:129

مصادر التحقيق

--------------------------------------------------------------------------------

ص:130

--------------------------------------------------------------------------------

ص:131

1 ـ الاحتجاج

أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ، من علماء القرن السادس ، تحقيق : الشيخ إبراهيم البهادري والشيخ محمد هادي بِهْ ، بإشراف العلامة الشيخ جعفر السبحاني ، نشر أسوة ، التابعة لمنظمة الأوقاف والشؤون الخيرية ، الطبعة الأولى 1413 هـ .

2 ـ الإرشاد

الشيخ محمد بن النعمان المفيد (ت | 413 هـ) ، طبعة طهران | 1377 هـ .

3 ـ الاصول العامة للفقه المقارن

العلامة محمد تقي الحكيم ، الطبعة الثانية | مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ بيروت 1979 م .

4 ـ أصول الكافي

الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت | 329 هـ) ، نشر المكتبة الإسلامية ـ طهران 1388 هـ .

5 ـ الإشاعة لأشراط الساعة

السيد الشريف محمد بن رسول الحسيني البرزنجي ثم المدني (ت | 1103 هـ) ، الطبعة الأولى ، نشر عبد الحميد أحمد حنفي ـ القاهرة 1370 هـ ، شارع المشهد الحسيني .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:132

6 ـ اقتصادنا

الشهيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه ، طبعة دار الفكر ـ بيروت .

7 ـ بحار الأنوار

العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت | 1111 هـ) ، طبع دار الكتب الإسلامية ـ طهران .

8 ـ الباب الحادي عشر وشروحه

العلامة أبو منصور حسن بن يوسف الحلي (ت | 726 هـ) ، تحقيق : الدكتور مهدي محقق ، نشر مؤسسة آستانه رضوي 1368 هـ .

9 ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول

الشيخ منصور علي ناصف ، من علماء الأزهر الشريف ، نشر مكتبة پاموق استانبول | الطبعة الثالثة ، دار إحياء الكتب العربية 1381 هـ | 1961 م .

10 ـ تاريخ الأمم والملوك

الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت | 310 هـ) ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1939 م .

11 ـ تبصرة الولي فيمن رأى القائم المهدي

السيد هاشم البحراني ، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم .

12 ـ التصوف والكرامات

الشيخ محمد جواد مغنية ، طبعة بيروت .

13 ـ تفسير القرآن العظيم

ابن كثير الدمشقي (ت | 774 هـ) ، طبعة جديدة ، دار المعرفة ـ بيروت 1994 م .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:133

14 ـ الجامعة الاسلامية (مجلة)

السنة الأولى | العدد الثالث | المدينة المنورة 1969 م .

15 ـ الحاوي للفتاوي

جلال الدين السيوطي (ت | 911 هـ) ، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت .

16 ـ حق اليقين في معرفة أصول الدين

السيد عبد الله شبر (ت | 1242 هـ) ، مطعبة العرفان ـ صيدا 1352 هـ .

17 ـ دفاع عن الكافي

ثامر هاشم العميدي ، نشر مركز الغدير للدراسات الإسلامية ـ قم 1995 م .

18 ـ سنن ابن ماجة

الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت | 275 هـ) ، تحقيق محمد فؤاد بعد الباقي | دار الفكر ـ بيروت .

19 ـ السيرة البنوية

ابن هشام (ت | 218 هـ) ، تحقيق : عبد الحفيظ شلبي ـ مصطفى السقا ـ إبراهيم الأبياري ، مبطعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر 1355 هـ | 1936 م .

20 ـ صحيح مسلم

مسلم بن الحسين القشيري (ت | 216 هـ) ، الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت 1978 م .

21 ـ صحيح البخاري

أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت | 256 هـ) ، نشر مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:134

22 ـ صحيح سنن المصطفى

ابو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت | 275 هـ) ، نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت .

23 ـ الصواعق المحرقة

ابن حجر الهيتمي (ت | 974 هـ) ، الطبعة الأولى | المطبعة الميمنية ـ مصر 1312 هـ .

24 ـ تاريخ الغيبة الصغرى

محمد الصدر ، نشر دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت .

25 ـ غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول

الشيخ منصور علي ناصف ، المطبوع بهامش التاج الجامع للأصول .

26 ـ الفتاوى الواضحة

الشهيد الإمام محمد باقر الصدر ، نشر دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت .

27 ـ فلسفتنا

الشهيد الإمام محمد باقر الصدر ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ـ بيروت 1970 م .

28 ـ الفصول المهمة

ابن الصباغ المالكي (ت | 855 هـ) ، مطبعة العدل ـ النجف الاشرف .

29 ـ الفصول المهمة في تأليف الأمة

العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين ، نشر مؤسسة البعثة ـ طهران .

30 ـ المستدرك على الصحيحين

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت | 405 هـ) ، دار الفكر ـ بيروت 1398 هـ .

--------------------------------------------------------------------------------

ص:135

31 ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل

دار صادر ـ بيروت .

32 ـ مع الأنبياء

عفيف عبد الفتاح طبارة ، نشر مكتبة الشريف الرضي ـ قم | الطبعة الأولى 1413 هـ .

33 ـ مقاتل الطالبيّين

أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاصفهاني (ت | 356 هـ) ، وينتهي نسبه إلى مروان بن الحكم بن أبي العاص .

34 ـ الملل والنحل

أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت | 548 هـ) ، تخريج محمد ابن فتح الله بدران ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة .

35 ـ المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنة والإمامية

الشيخ نجم الدين جعفر بن محمد العسكري ، نشر مؤسسة الإمام المهدي ـ قم 1402 هـ .

36 ـ موسوعة الإمام المهدي

نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ أصفهان ، مطبعة الخيام ـ قم 1401 هـ .

37 ـ معجم أحاديث الإمام المهدي

تأليف ونشر مؤسسة المعارف الاسلامية ـ قم | الطبعة الأولى 1411 هـ ، بإشراف الشيخ علي الكوراني .

38 ـ ينابيع المودة

الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي | مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ، أفست على الطبعة الأولى في استانبول .